أخبـار جانبية

أخبار جانبية

مجموعة قصصية

نهلة التهامي

أخبار جانبية

اسم الكاتبة: نهلة التهامي
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: عبير محمد
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى
رقم الإيداع: 2018 / 23223

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

01030365801

جميع الحقوق محفوظة

إهـــــــداء

إلى من علمتني أن أخطو وأن أخط
إلى من علمتني رسم الحرف وزين الكلم
إلى من ساندتني ودعمتني طيلة عمر
إلى من حين احتجت دعاءها لم أجده ولم أجدها
إلى روح أمي
ولروح أبي سلاما وحنينا وصدق حديث
أهديكم دعائي ونجاحي وأول أعمالي الورقية

أخبار جانبية

الملخص:

عندما يندمج أبناء الصحافة من المقال والقصة القصيرة لينتجوا مقالات قصصية. عشرات القصص تفوق في جموحها حد الخيال تحدث بأرض الواقع على غفلة من الجميع. لمحبي أخبار الحوادث وبريد الجمعة، لمحبي أخبار المجتمع والفن، للباحثين في صفحات إعلانات مبوبة، إليكم مجموعة من الأخبار الجانبية بل هي أقاصيص بائسة لحد الإثارة دون أن يعلم أبطالها هذا، نجدها في هامش الجريدة، بخط صغير واهتمام واهٍ. غالبا لن يلتفت لها أحد، قد تقرؤها عابرا دون أن تفكر فيها لحظة أو تتخطاها، هنا نجعلك تقف جانبًا لتتفكر جيدًا بتلك الأخبار، نلقي الضوء على حقيقتها، نجعلك ترى الوجه الآخر للخبر عله ينفض عنك الملل وعن ذهنك الرتابة. ربما تجدها في صفحة الحوادث، المجتمع، غرائب وطرائف أو في آخر صفحة، ربما لن تجدها في أي صفحة، ربما هي فقط من نتاج خياليّ، فقط تذكّرْ أن لكل خبر رواية وجهتي نظر. فلتتصفحوا معي الأخبار الجانبية لنعطيها بعضا مما تستحقه من اهتمام.

تنويه أخير لقد تمت صياغة المجموعة منذ أكثر من عامين كثاني مجموعاتي الأدبية فعذرًا إذا ما غلبت عليها حداثة الأسلوب وبساطته.

مقدمة

ألا تتذكروني؟ أنا نائل إلهامي، ألم يعد يوجد من جيلي أحد مازال يقرأ إلى الآن؟ كنت صحفي لأكثر من خمسين عامًا، مقالاتي دوت ترج الجرائد حتى فتك المرض بي. يقولون أصابني الخرف؟! أ أنا أخرف أيها المخرفون الجبناء؟ تقاعدت ولكني لم أقوَ على ترك متعتي الوحيدة، الكتابة. عدت لكم من جديد بمجموعة قصصية مدهشة، أم كانت تجميع بعض المقالات؟ لم أعد أتذكر جيدا.

لا، لا تنظروا لي هكذا وتبتسمون خلسةً فأنا شاب في العشرين، نعم شاب في العشرين من بعد الستين، لا يحسدني أحدكم، فأنا أعيش زهرة شبابي الآن وحيدًا بعد أن رحل العالم عني. مفهوم طبعا أن الحياة تبدأ من الستين ولقد بدأت حياتي من عشرين عامًا. كفى حسابات فهي ترهق عقلي وتحرق باقي فيوزاته. رغم حصولي على الدرجات النهائية في كل من المرحلة الابتدائية والإعدادية حينها أهداني أبي آلة حاسبة لها العجب لن تجدوا مثلها الآن، كانت الأولى من نوعها و.. ها أنا أثرثر من جديد في العديد من المواضيع كفأر الحقول.

لنعد لمجموعتي المقالية القصصية ولتكن ما تكون. كنت اعتدت على متابعة الأخبار الجانبية بشغف طيلة حياتي وتجميع المشوق منها، فهي تحمل الحقيقة بأكثر مما تدركون. بعد تفرغي الجبري في المنزل أصبحت أجمع الجرائد والمجلات حولي، لأقرأ ما تيسر من أخبار ولكنها الأخبار الجانبية هي ما أفتقد نتيجة صغر خطها وتهميشها.

يوميًا أبحث عن أفضل عنوان لخبر جانبي. أتهيأ لدقائق من المتعة ثم أرتشف كوب الشاي استعدادا للحدث الجلل، ثم لا أعلم حقًا ما يحدث بعدها، هل أقرأ الخبر فيثير فضولي فأحفظه بعيدا أم أهوي في دنيا الأحلام وأفيق على قصة مثيرة للخبر الأثير؟ دائما ما يصيبني الشاي بالنعاس والقهوة ترسلني سريعًا لعالم الأحلام هل يصبح اللبن منبهًا كافيًا لي؟ منعني طبيبي من المنبهات ولم يقتنع أن الشاي والقهوة منومات وليست منبهات. أحمق صغير السن في الخمسين ولا يفقه شيئًا، ماذا تعلم بكليته؟ هل تعلم كيف يحول غرفتي لصيدلية تكتظ رفوفها بالأدوية؟ سأنهض لأحطم كل الرفوف عندما أجدها وألقي بالأوراق بعيدًا. أوه كدت ألقي بآخر أعمالي، ألم أقل لكم إني عائد بعمل أدبي فريد؟ مجموعة من القصص الحقيقية بعيدة عن عالم الخيال، ها هي أوراقها بيدي، ما هذا هل أصابني الخبل؟ ما كل هذا الهراء العاطفي والأحلام الشابة؟! هل أنا من كتبت هذا يومًا أم أن حنينا لونس الألفة أعادني لسنوات ضعفي الإنساني الأولى.

في الروايات أمنيات الجميع تتحق وتصير حقيقة واقعة يعيشها أبطالها. ماذا عن أبطال روايات الحياة ممن تحققت أمانيهم أو لم تتحقق؟ يداهمنا ضيق الوقت دائمًا فنتصفح العناوين الرئيسية سريعًا ولا نلقي بالًا للأخبار الجانبية. ألا تعلمون كم حقائق ومواقف تفوتونها؟ لقد جمعت بعض الأخبار لكم ولأنشر العدد الأول من جريدتي الوهمية التي تحتوي فقط على الأخبار الجانبية. فلتقرأوها بمزيد من الشغف والصبر. سأذهب لألقي بتلك الأوراق في القمامة وأعود لأحكي لكم آخر أخباري الأدبية، لكن ماذا كان اسمها؟ لم أعد أتذكر، فليذكرني أحدكم ريثما أنتهي من كوب الشاي، تفضلوا معي.

(1)

أفرغ وجيه نصف محقن الدواء في زجاجة المحلول المعلقة بيد رفيقة عمره هيام، منحها ابتسامةً مؤازرةً وجلس بجانبها. منذ أن سقطت هيام فريسةً للمرض الغادر منذ عامين وهي في ذبول مستمر. سنوات عمرها الخمسون تظهر جليةً وإن أضاف المرض عمرا فوق عمرها. مسح على رأسها وجفف عرق الألم عنها، فهي صغيرته وحبيبته، تصغره بخمسة عشر عامًا. زواجهما استمر لثلاثين عامًا من الألفة والمشاكسة، منحته ولدين وكانا مصباح حياتهما إلى أن أتما رسالتهما نحوهما فهجروهما. رآها تحيد برأسها عنه كي لا يرى دموعها. نهض عنها واتجه لحاسوبه. مازالت أمامهم ساعة حتى ينتهي المحلول.

يحنقه عجزه أمام مرضها. أجبره حبه على أن يقتل كرامته ويرسل لأبنائه طلبا لمساعدته في علاج أمهم. أقنع نفسه أنه يمنحهم الفرصة لبر والدتهم، فقد زاد الحمل عليه كثيرًا، تكاليف حياتهم البسيطة غالية وعلاجهم أغلى، معاشه يكفي بالكاد لاستمرار حياتهم بمواجهة الغلاء دون سؤال. رغم سفر ولديه أيمن وعامر للعمل بالخارج إلا أنهم لم يفكروا يومًا في عرض مساهماتهم عليه. هو بالطبع يرفض أن تمتد يده حتى لأبنائه ولكن عرضهم سيثلج قلبه. مرض هيام استنفذ مدخراتهما سويًا. العلاج غالٍ والحالة تسوء باستمرار. علم من الأطباء بعدم جدوى الجراحة لسوء الحالة، فقط جلسات العلاج الكيميائي والمسكنات هم سلاحها لوقف انتشار المرض والتحمل، مؤخرًا لم يعد يجد الدواء لها، كثير من الأدوية غير متواجدة بالصيدليات أو المستشفيات. أزمة عامة تقتل المرضى بآلامهم.

تصفح حسابه عبر وسائل الاتصال أملا في رد أبنائه، وجد رسالة من عامر، قرأها متلهفا لتسقط عنه العبرات. صغيرهم الغالي يعتذر عن مساعدتهم لتورطه في أقساط سيارته الجديدة، يرسل لهم حبه ويسألهم الدعاء. أهذا هو ردك بني على مرض أمك وندرة علاجها؟! أتبخل عليها بمالك وهي من أغدقت عليك بعمرها! تفعل ذلك بأمك فماذا ستفعل معي؟ تباريت العام الماضي في شراء أغلى الهدايا لخطيبتك، على الرغم من مرض أمك إلا أنها تحاملت على آلامها من أجلك لتحضر حفل خطوبتك الباذخ. جفاؤك ولدي طعن قلبي.

بدأت في قراءة المنشورات الهزلية والساخرة بصوت عالٍ علها تنسي هيام بعض آلامها. ماذا أفعل حبيبتي لتعود لك ضحكة الحياة؟ ما بيدي حيلة. رأيت منشورًا لأيمن نُشِرَ منذ دقائق. لا يظهر عندي في قائمة المحادثات. أرسلت له رسالة أذكره باسم دواء هيام المتعذر إيجاده. بالطبع يسهل عليه إرساله لنا من الخارج فهو محاسب في كبرى المستشفيات العالمية. انتظرت رده ولا مجيب. يستمر نشاطه عبر حسابه في الظهور أمامي. أخيرًا جاء الرد من ابني البكري سندي وعكازي. لقد استشار عددًا من كبار الأطباء عن حالة أمه، أجمع رأيهم على عدم جدوى العلاج، التدهور المستمر أكبر دليل، نصحوا بالاكتفاء بإعطاء المسكنات حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا. أسف آخر وتهرب آخر. هل يئس الأطباء من رحمة الله فلم يعودوا يؤمنون بجدوى العلاج؟ وأيمن، أيسهل عليه أن يستسلم دون التعلق بأمل شفاء أمه أو منحها الراحة في آخر أيامها؟

ربي أي ذنب أذنبنا لنبتلى بجحودهم؟ أهذا جزاؤنا لتربيتهم وإيثارهم على أنفسنا دومًا؟ أبلغ خمسة وستين عامًا ومازال قلبي منفطرًا لوفاة أمي، فما بالهم؟ أأعايرهم بتربيتنا لهم أم بنجاحهم بدعواتنا؟ حتى في أقسى لحظات الألم لا يتوقف لسان هيام عن الدعوة لهم علها ساعة إجابة. كيف أخبرها

بموقفهم المخزي؟ أأقتلها بجحود أبنائها؟ أخبرها بأن عمرها في بيتي قد ضاع هدرًا عليهم. فوضت أمري لله فقد أبى قلبي مسامحتهم.

عدت لأنقر حاسبي لكتابة رسالة أخيرة، أضع بها مكنون قلبي، أشرح وضعي المالي وحال أولادي، أبحث عن رحمة في قلوب البعض، أسأل العلاج لزوجتي بعد أن ضن علينا أولادنا بالمساعدة، وضعت رقم هاتفي ولم أذيّل الرسالة باسم وأرسلتها لصفحة صرخات القراء. لا أطمع بمساعدة فقط أرغب في إطلاق صرخة قلبي على الملأ. لن يقرأ أولادي لكن لعل آخرين يقرأون فيتعظون.

علا صوت هيام الضعيف تسألني عن صمتي. ذهبت لها لأرى غيرتها القديمة عليّ في نظراتها مع ألمها. سألتني عما أفعل ومن أحدث؟ تخشى عليّ من السقوط في فتنة إحداهن؟ ألا تعلم أن ليس في العمر بقية لخيانة؟ وأنها سكنت القلب منذ لقياها؟ أفرغت باقي الدواء ليسري مع آخر قطرات المحلول. أمسكت بيدي تسألني من أين لي بالدواء؟ هربت بعيني عنها وأجبتها بألا تقلق فصحتها هي الأهم بالنسبة لي. لم أخبرها أنني لم أجده وأنني منذ أسبوع أضع لها بعض الفيتامينات مع المسكنات في محلولها بدلا عنه. لا عجب في سوء حالتها ولكني أحافظ على حالتها النفسية لآخر نفس في صدري.

بعد أسبوعين، أمسكت بهاتفي أصور صورة زفافنا المعلقة على الحائط. سألتني مندهشة عمَّ أفعل، أخبرتها أني انضممت إلى جروب للمتزوجين حديثا ويشترط نشر صورة الزفاف. ضحكت فأكملت أننا مازلنا حديثي العهد ببعضنا والأيام أمامنا ولربما نستفيد من خبرات الشباب المحدودة. ضحكت ملء فيها، فعادت جميلتي الصغيرة إليّ. هنا كشرت وحذرتها أن تصنع لنفسها حسابًا شخصيًا على مواقع التواصل الاجتماعي وتضع صورتها، بالتأكيد ستجتذب الشباب العابثين خلفها ممن يسمعونها أطيب

الأشعار وقصائد الغرام، تعلم أني غيور عليها من كل الرجال حتى لو بدوا في عمر أولادنا. قطع حديثي رنين الهاتف، ابتعدت عنها لأجيب على الرقم المجهول.

عدت لأحتضنها والدموع بعيني. جاء الفرج وغدا سيرسل لنا الدواء. رزقنا الله بشاب طلب أن يتكفل بعلاجها فهي تذكره بحالة أمه الراحلة بعد أن قرأ صرختي بالجريدة. مازال البر يكمن قلوب الناس. باركك الله يا ولدي فقد أثلجت قلبي. عندما سألتني هيام من أين لنا بالدواء بعد أن غلا ثمنه وشح بالأسواق، أجبتها: من أحد أولادي.

صفحة صرخات القراء: عزيزي القارئ فلتهمس لجريدتنا بصرخاتك فإنا لأمانة نشرها حافظون. لتكن صرخة حق للمجتمع والمسئولين فإن لم تلق ردًا فاعلم أن صياحك دون هواء. (حب فقد ثمره).

(2)

فاضل بيومي كليفتي لمن لا يعرفون. أجوب خان الخليلي وشارع المعز وجميع المناطق الأثرية والتاريخية بالقاهرة. كيف بدأت لا أعلم فتلك الحرفة متوارثة تنمو بداخلنا مع العمر. اتفاقياتي مع أصحاب الحوانيت والبازارت كفلت لي مصاريف دراستي. أتكلم خمس لغات بطلاقة وأستطيع التعامل مع أي سائح بلغات الإشارة المعروفة. أجذب السائحين بفهمي لكل منهم وأعرف ما يثير اهتمامهم. تخرجت من معهد السياحة والفنادق لأعمل بمجال عملي من قبل اتخاذي له.

سارت بي الحياة حتى تقابلت مع بولا هامبسون الإنجليزية الحسناء. رغم أنها تكبرني بتسع سنوات إلا أنني لم أندم على زواجي منها مطلقا، لقد منحتني بولا حياة جديدة، جمعنا عشقنا للأثار والسياحة فهي تملك شركة سياحية صغيرة بضواحي لندن، بالطبع سافرت للعمل والحياة معها بلندن حيث لا تشرق الشمس إلا لماما. لا يوجد هنا مرح بالعمل بل العمل هو المرح ذاته. بسرعة تكيفت مع متطلبات العمل وأجدته. تعلمت وعرفت عن الحضارة المصرية أضعاف ما عرفته طول عمري بإقامتي بمصر. يعشقون سحرها وأسرارها بشكل لا يصدق. تسربت إلي غيرة حقيقية على تاريخنا وحضارتنا المهجورة، لماذا وجب علينا أن نشعر بقيمتها الحقيقية للبشرية جمعاء من آخرين؟!

صرتُ أجوب المتاحف أبحث بعيني عن آثارنا النابضة بالخارج. رغم سفري المتعدد لدول الاتحاد الأوروبي بحكم عملي إلا أني لم أمل البحث عن آثارنا المنهوبة بالخارج. لقد عشت قديما في مصر بين الآثار ولم تتملكني تلك

الغيرة عليها ربما لوفرتها حولي فقدت بريقها في عيني إلا من عملي حولها، إنها تاريخنا وتراثنا المهجور، إنها كالجد الذي نهمله طيلة حياته ونفتقده بشدة بعد وفاته. تثور نفسي لرؤية ما يقرب من خمسة عشر مسلة فرعونية في إيطاليا وحدها، خلفا عن المسلات الأخرى الموجودة في أمريكا وميدان الكونكورد بفرنسا، كيف وصلت العديد من القطع الأثرية الخاصة بالملك توت عنخ آمون لمتحف المتروبوليتان للفنون بنيويورك! عندما قرأت في صحيفة أننا ربحنا القضية الخاصة باستعادة رأس أمنحتب الثالث بلندن بعد أن كلفت الدولة أربعين ألف جنيه استرليني ذهلت، أما بعد أن علمت أننا خسرنا قضية استرداد ثلاث قطع أثرية مصرية موجودة في إسبانيا وكلفتنا نحو خمسة وعشرين ألف يورو دون جدوى فقد طار صوابي، بأي حق نُسرق وتُنهب آثارنا ويكون علينا الاستماتة لإرجاع حقنا المسلوب!

متى يعود لنا تمثال رأس الملكة نفرتيتي من متحف برلين وتمثال «حم أيونو» وهو المهندس الذي بنى الهرم الأكبر من ألمانيا، وتمثال مهندس الهرم الثاني من بوسطن، حجر رشيد الموجود في المتحف البريطاني ولوحة الزودياك «التقويم» الموجودة في متحف اللوفر بباريس بل لنقل الجناح المصري بالمتحف، إلى متى سيظل تراثنا المصري عرضة للعبث والسرقة والإهمال؟

جعلتها قضيتي الشخصية وبدأت بالبحث الجاد والتنقيب في قضية آثارنا المهربة للخارج. قانونًا فإن اتفاقية اليونسكو الموقعة عام ١٩٧٠ أكدت حق الدول الأعضاء في استعادة آثارها المسروقة والمهربة بعد هذا التاريخ، أما عن أي آثار سرقت قبل ذلك فالاتفاقية غير ملزمة بإعادتها مما يدفع للجوء للمفاوضات والاتفاقيات الثنائية بين الدول وبعضها أو بالطرق الدبلوماسية والودية لعودة الآثار المنهوبة. إن هذا القانون وإن كان غير ذي صفة وغير ملزم

خارج مصر إلا أننا يمكننا رفع القضايا على الدول التي تحوز الآثار المصرية أمام القضاء المصري وإعلام تلك الدول بعد ذلك.

أما عن كل تلك الهراءات عن بيعنا للآثار، فقد تأكدت من وجود اتفاقية في مصر تنص على أنه لا يوجد في الدولة المصرية تجارة آثار منذ العام ١٩٨٣، ما يجعلنا في انتظار عودة نحو ٢٨٤ قطعة تم تهريبها قبل العام ٢٠١١، تمت سرقتها نتيجة التنقيب غير المشروع وتهريبها للخارج، كل ذلك بخلاف ما تم سرق بعد عام ٢٠١١ في فترة الفوضى الأولى بعد الثورة بالطبع. لقد قامت وزارة الآثار بإعداد قاعدة بيانات موثقة للآثار المسروقة خاصة ما بعد الثورة أطلق عليها «القائمة الحمراء» وتم توزيعها على المنافذ والمطارات.

ما ثبت أقدامي حقًا في بحثي كان وجود بولا إلى جانبي. رغم عشق بولا للحضارة المصرية وآثارها إلا أنها استنكرت سلب الحق الشرعي لأبنائها طالما هم يتيحون العالم كله للاستمتاع بها معهم. زيارتنا لمصر بعد غياب ست سنوات من الحنين إليها. رغم رغد العيش بالخارج إلا أنني أفتقدها حقا. لديّ عين جديدة أرى بها تاريخنا، أن أخطو فوق التاريخ ببساطة كنزهة بشارع المعز لدين الله الفاطمي أنعش روحي وذاكرتي، لم أنسَ قضيتي مطلقًا لذا ذهبت للمسئولين بوزارة الآثار لعلهم يجيبون استنكاري، وجدت ابتسامة على وجوه الجميع، ما بين الدهشة والفرحة واللا مبالاة، لم يعتادوا أن يهتم أحد بغير بعض الدارسين بالآثار. الرد كان واحدًا، بتلك الصيغة الرسمية الإعلامية الشهيرة، لقد فعلنا ونفعل كل ما في وسعنا، كما أننا خاطبنا وزارة الخارجية للاستعانة بالملحقين الثقافيين بالخارج ومساعدتنا في تتبع تلك الآثار المنهوبة في الدول التي يعملون بها حيث إنهم الأقدر على ذلك بسبب طبيعة عملهم، نعمل أيضًا على التواصل مع المصريين الدارسين بالخارج لتوعيتهم بالآثار

وأهميتها ليكونوا على دراية بها وفي حال ظهور أي من المسروقات يبلغونا عن طريق المكاتب الثقافية أو الاتصال بنا مباشرة.

أتعلمون ما هي المصيبة حقا بعد الوصول والتأكد من وجود أثر مسروق بدولة ما؟ العائق الأول بخلاف التكلفة الباهظة للقضايا الدولية، إن كارثة استرداد الآثار المصرية المهربة للخارج تتمثل في أننا لا نستطيع إثبات ملكيتنا لها!! كيف بعد أن انفردت حضارتنا بأصالتها وتاريخها العريق؟ هل يصعب حقا نسب تلك الآثار للحضارات المصرية المختلفة؟ إذن لماذا يتبارون في المزايدة عليها كجزء من العراقة المصرية الممتدة لآلاف السنين! إنها دوامة تقيد أيدينا بعيدًا عن حقنا.

عدنا لشركتنا بلندن. عاد إيقاع العمل لوتيرته. أجوب أوروبا مرشدًا لسياح وسائحًا. خططنا السياحية معروفة حتى جاء ذلك اليوم، طلب فيه سائح إنجليزي ضمن فوجي السياحي بأسبانيا زيارة صالة مزادات شهيرة لشراء تذكار نفيس، انفصلت عن الفوج تاركًا مسئوليته لبولا وحدها ورافقت السائح لمبتغاه، هنا وفي تلك الصالة وقعت عيني عليه لأول مرة، تمثال فرعوني بديع في شرنقة زجاجية عالية الجودة، سألت عنه ليجيبني المسئول عن الصالة بأنه تمثال أصلي للحضارة المصرية العريقة وأنه سيتم بيعه بمزاد خاص بعد شهر لصالح أحد أكبر مستكشفي الآثار. بالفعل تلقت الصالة العديد من العروض المجزية للتمثال ولذلك تم وضعه بخزينته الزجاجية للعرض لإثارة حماس آخرين لحين يوم المزايدة الأعظم. خرجت متوجهًا للمسئولين في السفارة ولكن الموقف دقيق وشائك، هي صالة مزادات خاصة في أسبانيا إحدى الدول الأكثر تهربًا لاسترجاع آثارنا منها.

ذهبت مرة ثانية لرؤية التمثال، شامخًا بعراقة مهده، تلصصت على الأمن والعاملين، أخيرًا قادني تفكيري لأتخلف عن الرجوع للندن مع بولا والوفد السياحي والمكوث بأسبانيا لفترة. لا أعلم كيف انتهى بي الأمر متلبسًا بسرقة التمثال الفرعوني. لست بسارق ويعلم ربي وكيف لصاحب حق أن يسرق حقه. لم يعد يفرق معي مصيري. تلك قصتي بالكامل، أرويها لك لتنشرها عبر جريدتك بمصر. لم أبُح لأحد إلاك فأنت الصحفي المصري الوحيد هنا لتغطية حادث آخر. وحدك من قد يفهم، إنها قضيتنا العامة، لست أنا السارق بل هم السارقون. فلتجعلها قضيتك بل لتجعلها قضية رأي عام.

خبر جانبي في صفحة أخبار عالمية: إبطال محاولة سرقة قام بها مصري لصالة مزادات كبرى في أسبانيا.

(3)

القتل ليس سهلًا، ليس سهلًا على الإطلاق. ركل عزت زجاجة فارغة بقدمه لتتوسط الطريق، سرعان ما أقدمت سيارة مسرعة ودهستها، لكم رغب في وضع عزمي مكانها. ليومين سابقين انقلبت حياته رأسًا على عقب. عائد من عمله مبكرًا ليجد أمه منهكة في إعداد الطعام وحدها. والده يجالس أصدقاءه على مقهى المعاشات وأخته شذى تزور إحدى صديقاتها. جلس ليحادث خطيبته منار أثناء انتظاره للعشاء. انشغل تمامًا بحديثهم الضاحك حتى دوّى سقوط شيء بجانبه، إنه هاتف أخته، لابد أنها نسيته فهي قلما تركته من يديها. أنهى مكالمته ليرفع هاتف أخته، لقد أغلق من ارتطامه بالأرض، فتحه ليجده يعمل، ليخلي ضميره تذكر لمسة المرور السرية بأخته. رغم كونها شديدة الحماس بإخفائها ألا أنها لم تنجح في مراوغة عينه الخبيرة. تفحص الهاتف سريعًا ليجده يعمل بكفاءة. قبل أن يعيده مكانه لمست أنامله إشعارًا برسالة جديدة عبر موقع للتواصل الاجتماعي يتيح إرسال واستقبال المحادثات والرسائل الإلكترونية، فُتحت الرسالة وفُتحت معها أبواب الجحيم.

هل وقف ضجيج قلبه من أثر الصدمة، لا يعرف! شهق بعنف فقد نسي أن يتنفس. عاد ضجيج قلبه يدوي بأذنه كدقات طبول الحرب. أخذ الهاتف وانسحب لغرفته، أغلق الباب خلفه جيدًا وهوى، رسالة لأخته من أحد يدعوها لمقابلته غدا بشقته للاحتفال بكونها ليست حبلى!! بالتأكيد هناك خطأ. أخته في عامها الجامعي الثاني، شابة دون العشرين، صغيرتهم المرحة، هي بالتأكيد دعابة من إحدى صديقاتها. الرسالة من رقم مسجل باسم دعاء ولكن، ما كتب حقا ليس بالتأكيد لفتاة. تجمد أمام الهاتف. يقرأ

محادثات أخته شذى مع الرقم المجهول. لا يوجد خطأ بالرسالة هي حقًا موجهة لشذى. فغر فمه وتساقطت دموعه رغمًا عنه، ما يراه هو أبشع كابوس!

تأكل عينه الكلمات فتمنى لو كان أعمى، يأبى عقله التصديق، تتجمع الحقائق لتسرد واقعًا مخزيًا، صغيرتهم المحبوبة، تلك الفتاة الخجولة البريئة من يخشى أن يفتح باب حجرتها عنوة فيربكها، جلبت العار للعائلة. شذى ترافق ذلك المدعو عزمي والمسجل كدعاء. ما يبادلونه خلال الرسائل والمحادثات يبئ بأفظع وأحط الأشياء، لا سبيل للبت فهي تذهب لتلاقيه بمنزله، عباراتهم فاقت كلماتها الغزل، يخجل هو وهو يكبرها بأعوام من ترديدها على خطيبته حتى بعد زواجهم، كل تلك الأسئلة الحميمية والردود الصريحة، عض على شفته ألمًا كي لا تفلت صرخة ألم. ما يراه مصيبة وصمت بها أخته وجلبت العار على عائلته بأسرها. كل تلك العبارات المليئة بالمتعة المحرمة كيف ستصمد أمه أمامها؟ هل ينجو أبوه من صدمة حقيقة ابنته أم يذهب بقلبه المريض ضحيتها؟! أختهم الكبرى هل يسامحها زوجها لخطأ لم ترتكبه أم تنهار أسرتها ظلما!

ما فعلته شذى دمرهم جميعا. تلك العلاقة الآثمة كيف بدأت وكيف استمرت دون علمهم؟ طالما كانوا أسرة مترابطة متحابة، كيف ولماذا فعلت شذى ذلك لنفسها ولهم؟ تلك التي تكتب هل تحمل حقا روح أخته الحبيبة؟ من كتبت رسائلها بغنج وأنهتها بتفكيرها في الانتحار حال تركها!! أتلك هي التي لم تترك فرضًا؟ كيف تقف بين يدي الله، ألم تخشَه؟ ألم تخشَ وبال انتحارها؟ ألم تفكر لحظة فينا، أسرتها. وقع نبأ انتحارها علينا وسببه! هل ضمنت ألا تقبض روحها معه؟! لقد توارت بعيدا عن أعين الناس فكيف لها أن تتوارى يوم نبعث أحياء! كيف سقطت لتلك الهاوية ومتى؟

ماذا أفعل الآن؟ أأقتلها دفاعا عن شرفنا المهدور؟ كيف سأخفي فضيحتنا، ستكون وصمة العار بعائلة كريمة لا يسوؤها سوى تلك الابنة الضالة. أتتصدر صورتي صفحات الحوادث ويكتب في الجرائد عن قتل شاب لشقيقته بعد أن شك بسلوكها لتتناول سيرتنا الألسنة؟ ما ذنب أعمامي وأخوالي؟ ماذا أفعل يا ربي؟ ارتفع رنين هاتفي. لكم بتُّ أمقت الهواتف. منار تتصل بي، أنهيت المكالمة ونظرت للدبلة الفضية بإصبعي، ماذا أفعل معك حبيبتي؟ أتتزوجين بقاتل؟ هل ستقفين بجانبي أم تتخلين عني؟ بل كيف لي أن أثقَ بها؟ كيف لي أن أعلمَ أنها صادقة معي فأختي من جمعنا سقف بيت واحد عمرنا خانتنا. ألم، فقط ينبض قلبي ألمًا.

من أجل كرامة عائلتي سأصمت الآن ومن أجل كرامتنا سأنتقم. أعدت هاتفها اللعين لمكانه وعدت لأغلق عليّ غرفتي. أغمضت عيني، لكم أغمضت عيني؟ تمنيت أن يعود بي الزمن فلا أعلم شيئًا. في الجهل راحة، معرفة الحقيقة هي الجحيم. اشتعل الفراش من حولي، عاندني النوم بشدة. فشلت في التفكير في أي شيء عدا حقيقة شذى وعلاقتها. توقف بي الزمن حتى سمعت طرقات على بابي ودخول شذى لتدعوني للطعام. ادَّعَيتُ رغبتي في النوم ونهرتها خارجًا. كيف خدعتنا بمنظرها الطفولي؟ لا أطيق رؤيتها بعد الآن، كل حبي واحترامي لها تداعى، لماذا يا شذى فعلتِ بنا ذلك لماذا؟ لماذا كسرتني؟!

صباحًا واربت باب غرفتي لأستمع لدعاء أمي لشذى بالنجاح وتوفيقها في دراستها، خرجت عقب خروج شذى لأسأل أمي عن وجهة شذى المبكرة لتجيبَني متعاطفة بانشغال شذى بالعديد من المحاضرات والدروس الخصوصية التي تجعلها تعود مساءً منهكةً من المذاكرة، تتبعت شذى سريعًا لأجدها تتجه لموقف نقل المحافظات بدلًا من الذهاب لكليتها، رأيتها تستعد لركوب حافلة لمحافظة مجاورة، قدت سيارتي خلفها، راقبتها منذ وصول

الحافلة لمحطتها الأخيرة واستبدالها الحافلة بالمضيّ سيرًا حتى وصلت لبناية صعدتها بتؤدة. هل أصعد خلفها؟ أأقتحم المنزل عليهم وأقتلهم دفاعًا عن الشرف المهدور؟ لا أدري حقًا كم توفيت في كل دقيقة أنتظر بها شذى أسفل تلك البناية؟ تعصف كلمات رسائلهم بعقلي، أدعو الله أن تتوقف خيالاتي بوضعهم الآن من التجسد أمام عيني؟

جسد فارقته الروح أجلس منتظرا في سيارتي. أخيرًا نزلا معًا، شذى ورجل هو بالتأكيد تخطى عقده الرابع، هيئته كعامل بشركة ما بدبلة تقيد يده اليسرى، متزوج ويستغل سذاجة مراهقة، لا أدري حقًا كيف هناك ما قد يجمعهم، لكل منهم حياته ومجتمعه ومحافظته، أتعارفا عن طريق صديق مشترك! مستحيل، فلا أصدقاء قد يجمعون بينهم. هي أكبر من بناته، إذا كان لديه أحداهن، وأصغر منه بكثير! لقد أسدل الليل ستاره وهدأ الطريق الهادئ أصلًا. يسيران بألفة واضعًا يده على كتفها، يتضاحكان ويتغامزان، لم يحتمل قلبي أكثر. من بعيد تربض أنوار موقف الحافلات، لقد حان وقت عودتها للمنزل بعد كل شيء. لم أدرِ بنفسي إلا وأنا أسرع بشدة حتى صدمته. مرت السيارة على جسده لينزف كما نزف قلبي بسببه. كانت صرخة شذى تدوي قبل أن تتلاقى نظراتنا، وقفت الصرخة رعبًا في حلقها وتحدثت العبرات، فزعة تطلب الصفح! ليس بعد ما قرأته وشاهدته. انطلقت بسيارتي لا أعلم ما قد يئول إليه الحادث.

بعد منتصف الليل راح ضحيتي كلب ضال. صدمته بالقرب من مركز خدمة السيارات في الشارع المجاور لمنزلي. رجوتهم تنظيف سيارتي من دماء الكلب وشعره العالقين بها. تركت السيارة بعد تنظيفها جانبا وعدت سيرا للمنزل. القتل ليس سهلًا، ليس سهلًا على الاطلاق. رغم نيران قلبي لكني لم أتخيل يومًا أن أزهق نفسًا. هل أسلم نفسي وأكشف عارا صممت أن أخفيه؟

هل تبلغ عني شذى لقتله؟ دخلت للمنزل لأجد بسمة أمي الحانية تستقبلني، هانئة بغفلتها. سألت عن الجميع فأجابتني أن أبي نائم وشذى أيضًا بعد معاناتها من صداع قاتل. حسنا لقد عادت بعد كل شيء. دخلت لغرفتي مشتت الذهن مكسور، سامحني يا الله، مازالت كلمات الرسائل تطاردني، أغمض عيني وأفتحها فأجدها حولي لا تغيب أبدًا، لقد كسرتني شذى وأحنت هامتي.

من بين دموعي تجسدت شذى أمامي، باكية نادمة شاحبة من رعب ليلتها، اعتذرت معلنة توبتها، تقنعني أنها علاقة بريئة وقد حافظت على نفسها جيدًا، فقط هو عبث قادها إليه تهورها، نادمة على خداعها، شاكرة لستري عليها أمام عائلتنا. قالت شذى الكثير ولكنها لم تقل أنها جعلتني قاتلا بعد أن قتلتني هي بفعلها. لا أدري بما أجيب عليها، هل حضرت فعلا أم كانت أضغاث أوهامي؟ لست بنائم لست بحي، إذا قدرت لي الحياة سأبحث غدا عن أسرة الوغد عزمي لمنحهم ديته. تغيب عني الدنيا رويدا رويدا، يعصف الألم بقلبي رحمتك وعفوك يا الله يكفيني ثقل ضميري وألم روحي النازفة. هل يقتل الألم قلبي؟!

خبر جانبي في صفحة الحوادث: بسبب جنون السرعة يلقى رجل مصرعه دهسًا ونجاح القاتل في الفرار.

خبر جانبي في صفحة العلم والعلماء: دراسة جديدة الحزن قبل النوم قد يصيب القلب بأزمة قاتلة كحالة الوفاة الفجائية لشاب في فراشه دون أي سبب مرضي فقط عينه الدامعة.

(4)

حدق أيمن مخلوف المحامي بالسيدة الجالسة أمامه عبر مكتبه. بالتأكيد سيرفض تولي قضيتها، فهو أبدًا لا يشترك في إذلال رجل آخر بخلعه. لا يعلم لما أصر مساعده على مقابلة تلك الموكلة رغم رفضه نوعية هذه القضايا، زفر وقرر منحها فرصة لعرض قضيتها قبل أن يرفضها بذوق، هي سيدة حامل بالرغم من أي شيء. بهدوء أعادت صفا طلبها برغبتها في توليه رفع قضية خلع من زوجها لكونه مدمنًا، لقد اكتشفت انغماسه بسهرات مشبوهة وسقوطه في وهم الإدمان، لقد شككت طويلًا بتعاطيه أحد العقاقير لذا راقبته حتى ضبطته متبلسًا يخونها مخدرًا!! رغم كونها هادئة للغاية إلا أن اختلاجة صوتها أفصحت عن فزعها الشخصي. ماذا خلف سيدة تطلب الخلع للإدمان فضلا عن طلب الطلاق للخيانة؟!

ربتت صفا على بطنها المنتفخ بحب وواجهتني، لا تريد لابنها أن يلاقي مثل مصيرها، لا تريد أن تبتليه بأب مدمن! هذا جديد، هي عانت من الإدمان فيما سبق، نظرة الحزن بعينيها أشعلت فضولي لمعرفة ماضيها، هي ابنة كبرى لأب مدمن وأم ضعيفة وأخ أصغر أثير. لم تكن معرفتها بإدمان والدها صفقة كبيرة، فهي طالما ذهبت لاستلام تحاليل الإدمان والاستفسار عن النتيجة منذ كانت بالعاشرة. عاشت سلسلة المعاناة من أب مدمن عنيف تارة ضعيف باكٍ تارة أخرى. كم من وعود بالإقلاع صبها في آذان والدتها كلما هددت بتركه، يذهب للعلاج بإحدى المصحات قبل أن يعود مجددًا بعد فترة وجيزة من التعافي لنوع جديد من الإدمان، لكم كرهت ضعف والدتها واستمرارها في تصديقه بعد كل شيء.

أن تحيا بعار إدمانه فرض عليها الوحدة، تخجل من استضافة أي من صديقاتها حتى لا تراه بوضع مخزٍ، أجبرت على الاستغناء عن مباهج الحياة من ملابس جديدة ورحلات وغيره نظير دفع والدها للمخدر، تحملت عنفه وثورته في نوبات هياجه كوالدتها، كان باستمرار مصدر ألم وضعف لها، بالتأكيد لم تمقته ولكن إدمانه امتص حبه من قلبها. سنوات من العذاب، كانت تكتفي بحلم الخلاص، خلاصها وأمها وأخوها من حياتهم البائسة. قديمًا في أعماق روحها حلمت يومًا بشفائه ولكنه بدد حلمها بعودته كل مرة للإدمان.

نظرت لي صفا ولم ترَني، عيناها سبحت بالماضي، أردفت تكمل قصتها، بعد إتمامي المرحلة الثانوية بتفوق لم أجد ما يؤهلني لدخول كلية أحلامي. أغلب مصادر دخلنا ترمي حطبًا لدخان إدمان أبي. اتخذت من كلية أدبية بسيطة سبيلا لبحثي عن عمل بجانب دراستي. توفيت والدتي فجأة. سكن قلبها بعد طول ما معاناته معها. شعرت أن ظهري عارٍ، بل لم أشعر أن لي ظهر على الإطلاق. وفاتها كسرتني، خسرت آخر سند واهٍ لي، لم أجد من ألجأ له بألمي، بات أبي ينهل من المخدر حزنا عليها، عاش معنا شبحا، جسدا بلا روح، احتضنت أخي الصغير آخر من لي مع وعد بدعمه طول حياتي، أواسيه بمصابه ولا أجد من يواسيني سواي.

في عمر العشرين كنت بالفعل المسئولة ماديا عن أسرتنا. لا يهم كم أتعب أو ماذا ألاقيه بعملي، المهم هو حصولي على المال ما يكفي لنفقات الحياة ودفع شر أبي بعيدا لإدمانه. بدأ أخي الصغير في طلب المزيد والمزيد من أجل دروسه بالمرحلة الاعدادية، تمنيت أن أحقق فيه حلمي بالتفوق، جددت بعملي لأوفر كل ما يطلبه حتى إني لم أعد ألاحظه، تراجعت قسرا عن دوري، لم أكن أخته فقط بل أمه الثانية وصديقته المقربة، كان عائلتي وسبيلي لدفع وحدتي، كنت سنده في الحياة وهو سندي.

شهقت صفا بعنف قبل أن تفيض بالدمع عيناها. عادت يومًا من عملها فوجدته نائما على غير عادته بمثل هذا الوقت، ذهبت لإيقاظه ليتناولوا الغذاء سويا قبل ذهابه للدرس، نادته دفعته رجته، ارتج قلبها بضلوعه لبرودته. مات، ذهب صغيرها فجأة وتركها وحيدة، قتل بجرعة مخدر مضاعفة!! نعم هو مدمن، كان مدمنا، كيف له أن يستقيم ورب أسرته مدمن؟! قدوته فاشل جره بضعفه للإدمان، قتل نفسه حين سلم عقله لما يذهبه. لم يكتفِ أبي بكونه جذع أجوف، عقبة بحياتي بل أخذ مني أعز ما أملك، لم يكن أبدًا سندا لي، لم أشعر يومًا معنى أن يكون لي ظهر بالحياة يدعمني ويحميني، عشت بلا أحد للرجوع إليه وقت ضيقي، لم أختبر كتفًا للبكاء أو حضنًا للأمان.

جففت دموع روحها. لقد رحل أبوها بعد أن افترسته الأمراض. سنوات الإدمان أوهنت جسده وجعلته مرتعًا لمختلف الأمراض. فجأة سقط نتيجة جلطتين واحدة بقدمه والأخرى بذراعه. قبل مضيّ الوقت اكتشفوا وجود عدد من الأورام الحميدة بصدره وكتفه، لم يحتمل جسده المزيد، استسلم للسرطان يعبث بأعضائه كما عبث المخدر بعقله، لم يجد في مرضه ما يسكن ألمه، كل تلك المواد المخدرة اعتادها جسده فلم تكن ذات فائدة عظمى، تركها متألمًا غير قادرة على دفع آلامها عليه بعيدا.

تركت وحيدة بالحياة كما كنت دوما، زواجي كان لإيجاد أسرة جديدة تنشلني من وحدتي، أملي تداعى مع اكتشافي لخيانة زوجي وسقوطه في هوة الإدمان، كان زلزالا قلب حياتي رأسا على عقب، بالتأكيد خيانته جرحتني عميقا ولكن أن أجر لابني أب مدمن هو محال. أنا خير من يعلم معنى وجود مدمن بمنزلك وحياتك. من فضلك سيدي لا تتسرع بحكمك علي فأنا لا يساورني أي شك في ضعف زوجي. رفض مجرد التفكير في محاولة الإقلاع عن

إدمانه، فقط لقد ضغط كثيرًا على جراح قلبي، لو فقط قرر التعافي لظللت بجانبه ليل نهار، لكنني رأيتها بعينه، نظرة أبي، يعد عالما باستحالة وفائه بوعده. بالتأكيد لا أجد في نفسي سبيلا سوى بدفعه بعيدا عن حياتي، لدي ابني لأكون سندا وظهرا له.

هنا علمت لماذا أصر مساعدي على مقابلة صفا قبل رفض قضيتها، أنا ذاهب لتولي أول قضية خلع لي، ففي سبيل دفع الحياة علينا أن ندفع عواقبنا المؤلمة بعيدا لنتجاوزها.

خبر جانبي بالصفحة الأخيرة: رفع راية الخلع بعد أضحت قضايا كبار المحاميين، بدون ذكر أسماء والبقية تأتي...

(5)

جلس مصطفى يائسا على سور حديقة الحيوان. تلك الحيوانات السعيدة يحسدها حقا. أراح يده من حملها الثقيل. وضع حقيبة أوراقه جانبا. مصطفى نابغة كلية العلوم، لم يحالفه الحظ بالتعيين في الجامعة أو أحد المراكز البحثية، لم ينجح حتى في الوصول لعمل حكومي ثابت، أضاع عمره في البحث عن مصدررزق يتيح له استكمال أبحاثه، لم يجد من يمد له يد العون في ذلك، قرر خوض غمار الدراسات العليا على حسابه بمعاونة عمله ومساعدات والديه، كان خطأ عمره الفادح، لا يجد مكانا يجري فيه تجاربه العملية، يحتاج الإبداع لسقف نقدي عالٍ لا يمتلكه.

اليوم كان آخر سعيه في الوصول لمعمل يجري فيه أبحاثه، نجح بعض من أولاد الحلال في توصية أحد الإداريين في مركز البحوث الزراعية لمقابلته، بالطبع رفاهية اختيار المركز ليس متاحا، مركز البحوث الزراعية وكل أبحاثه على الوراثة الجينية المتقدمة! لا يهم، المهم الولوج لمعمل، حلمه بأجهزة يقف أمامها ويجري عليها أبحاثه أسكرته. جاء حاملاً أوراقه وخبراته وآماله ووضعهم بين يديه، كان ردهم كفيلًا بإلقائهم في سلة القمامة بجواره، سبيله الوحيد لحلمه يحتاج لتوصية من مسئول هام، ربما وزير، ليتمكن من العمل بعقد في المركز. هل هذا هو سبب بؤسه؟ بالطبع لا. بالرغم من أن أهم معارفه هو سائق في وزارة النقل بمنصب مدير إدارة ولكن لا يهم هذا على الإطلاق، الكارثة في العقد المراد، عقد بقيمة مائة وخمس وعشرين جنيهًا مصريًا فقط لا غير. يبدو أنني نسيت إغلاق فمي فأثار ذلك حفيظة الأستاذ المحترم، باستهزاء

مضنٍ أكمل: فلتحمد الله زملاؤك عقدهم بسبعين جنيها شهريا. نظر لي باستعلاء وأردف: هذا إذا فلحت بالحصول والوصول لذلك العقد.

خرجت من عنده محبطا للغاية، المطلوب مني الآن البحث عن واسطة ضخمة تكفل لي الوصول لعقد الجنة هذا، عقد ينص بعمل ستة أيام أسبوعيا من الثامنة صباحا حتى الثالثة وربما السادسة مساء، مع احتمال المكوث للثامنة لإنهاء عملي به، كل هذا مقابل مائة وخمس وعشرون جنيها، لم أصل إلى مبلغ الأغنية الشهيرة فأقبض مائة وخمس وأربعون جنيها مثله. كيف لي بالحياة بمثل هذا المبلغ، أيكفي مصاريفي الشخصية ومصاريف انتقالي، ماذا عن أبحاثي؟ هل يكفي أن أخوض تجربة البحث العلمي التي تحتاج لصنبور نقود تالف ليستمر في ضخ العملات دوما، عملي في أحد معامل التحاليل يعطيني ألف جنيه مقابل المكوث نصف اليوم والرحيل في ظلمات الليل.

اشترى مصطفى بذلة جديدة وذهب ليعمل مندوب دعاية دوائية، اكتسب لسانا يقطر عسلا، أمضى أسبوعا يتمتع بالكورس التعليمي في أحد أفخر الفنادق، استلم عمله يدفعه الأمل، الأمل بالراتب الضخم والعمولة الكبيرة التي تتيح له استكمال حلمه. بعد مضي شهرين قرر الاستقالة. لم يتعب من اللف على الأطباء في عيادتهم والمستشفيات، بل أتعبته حقيقة العمل، ما ينطويه العمل من هدايا ورشاوى مقنعة للأطباء لوصف أدوية شركته، أساليب ملتوية يلجأ لها الأطباء وشركات الأدوية لزيادة أرباحهم ويدفع المريض الثمن. اختنق من استسلام الجميع لمبدأ إذا انتشر الفساد فهو ليس فسادا. دفع قيمة شرط الجزاء في عقده واتخذ قرار حياته.

كاد يلين أمام دموع أمه وتوسلاتها بعدم الرحيل، لكنه اتخذ قراره ولن يتراجع عنه، ما مستقبله في بلده؟ لا شيء، لن يحقق أحلامه وطموحه في غمر بيروقراطيتها العتيدة، باع شقته في منزل العائلة، كان والده جهزها له في حال زواجه. عجبا، أتخيل أنه يقدر على مصاريف الارتباط والزواج وهو لا يكفيه راتبه لإعالة نفسه وحيدا. باع كل ما يمتلك وتيمم السفر للخارج استكمالًا لأبحاثه ودراساته، شعر أن أحلامه رسالة في زجاجة تسبح دون هدى، أخرج أحلامه من قمعها للبحر الواسع.

وصل إلى ألمانيا على طوق آماله، مستغلًا إجادته للغة الألمانية بدأ في التسجيل للالتحاق بالجامعة ومواصلة دراساته العليا، صمد أمام العقبات. واجه تيارات الاختلاف والرفض. يعلم أنه أحرق قلاعه في بلده فلا عودة دون نجاح. تحمل، درس وبحث عن عمل إضافي. وفقه الله لمسعاه أخيرًا. أصبحت نظرات الاحترام والاهتمام تتبعه أينما كان. تبناه أستاذ كبير علميا، رأى في أبحاثه نواة ثورة علمية، شجعه وأيده. ترك عمله بعد أن تكفلت جهة بحثية عظمى بتمويل أبحاثه. عقله يطير حبورا، يعمل دون رقيب على إبداع عقله، فور أن يحتاج جهاز يجده أمامه متوفرا، تذكر قائمة الانتظار قبل كل جهاز، تذكر ثمن العينة الواحدة وابتسم.

خمس أعوام مضت عليه في غربته، خمس أعوام أحيته من جديد. نقش اسمه بماء الذهب في ذاكرة التاريخ. بحثه في علم الوراثة الجينية نجح وقلب موازين وقوانين العلم رأسا على عقب. يقف الآن على أرض المكسيك ليتسلم جائزة ألبرت أينشتاين العالمية للعلوم التي يمنحها له المجلس الثقافي العالمي عن علم الوراثة، شهادة وميدالية وشيك بعشرة آلاف دولار أميركي، ليست أولى جوائزه ولا آخرها، ابتسم لوجه أمه الباكي فرحا وعقب في كلمته رسالة إلى أحد أساتذة مركز علمي شهير في بلده كان دائم السخط على أفكاره

وأبحاثه الجديدة. دائما ما يذكره أن علماء العالم الثالث يركضون خلف القطيع ولا ينحرفون عنه ليضيعوا في غياهب المجهول. الآن يحدثه من المجهول بعد أن أصبح حقيقةً وواقعًا يعيش فيه، فليدعوا العلم يأخذ مجراه في العقول ليشهد العالم بعدها ثورة الانقلابات العلمية وينفردوا بالسبق العلمي في مزرعة العالم الجديد.

خبر جانبي في صفحة أخبار عالمية: حصول العالم المصري مصطفى بدر الدين على جائزة ألبرت أينشتاين تكريما له على اكتشافه الهام.

(6)

وقف عم بدوي يطرق باب الشقة بلا مجيب، كاد أن يعود أدراجه لكن استوقفته أنات من خلف الباب، صرخ مناديا على ساكني الشقة، نجيب بيه، مدام سها، نجيب بيه رد عليّ الله لا يسيئك. عندما لم يلق جوابا هرع مناديا البواب ليشاركه مسئولية كسر الباب، خشي عم مسعد تحمل المسئولية رغم كونه حارس العقار، لم يجد بدًا من إبلاغ النجدة ليتحملوا هم وبال كسر باب الشقة، حضرت الشرطة سريعًا بعد أن افترشت السلم مللا وتعبا، كان الله في عونهم من زحام كورنيش المعادي وحوادثه. أول سؤال وجهوه لي هو من أكون؟ أهذا وقته الآن! أنا بدوي سليمان، طاهٍ محترف، أعمل لدى أسرة نجيب بيه منذ سنوات، أحضر ظهرا كل يوم محملا بطلبات المطبخ السابق إخباري بها، يبدأ عملي ظهرا لينتهي مساء إلا في حالة وجود حفلات أو عزائم أظل حتى رحيل آخر مدعو، أقطن في شارع النزهة، لدي ثلاث أطفال، ولدين وبنت، راتبي... كفى كفى هل ستقص قصة حياتك الآن فيما بعد سنأخذ كل البيانات اللازمة. بعد اقتحامهم الشقة كدت أسبقهم داخلا. على مقربة من الباب وجدنا جثة نجيب بيه. يبدو أنه من سمعت تأوهاته قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بسبب جبن الحارس المغوار، فتشت الشرطة باقي الشقة لتجد المذبحة العظمى بالداخل.

في غرفة النوم الكبرى وجدوا مدام سها منفجرة الرأس في مشهد دموي بشع، هول المشهد أطاح بصوابي، أنا من أخشى متابعة الأفلام الأجنبية مع أولادي عل مشهدا داميا أو مرعبا يأتي، أجد جثة بدون رأس وقد تناثرت بقاياها في أنحاء الغرفة. اللهم سترك وعفوك ورضاك. جلست ألتقط أنفاسي

قبل أن تدوى صيحة أحد العساكر بمصيبة جديدة، هرع الجميع صوب صوت العسكري وظللت في المؤخرة، فلم يعد هناك مجال للفضول بعد الآن، كانت جثة ابنهم حازم مشنوقا ومعلقا في شماعة بخزانته، هنا لم يعد هناك المزيد، لقد مات جميع أفراد الأسرة بطرق بشعة. في لحظات انقلبت الشقة رأسا على عقب، محققون جنائيون وبوليسيون، مع كثرة الأسئلة والاستجوابات بدأت الرهبة تدب في نفسي، ماذا حشرني في تلك المصيبة؟ تركوني أمضي لأبيت بمنزلي مع وعد للقدوم صباحا للقسم استكمالا للتحقيقات.

من هنا وانقلبت حياتي تمامًا، تحقيقات بوليسية صباحا وأخرى صحفية مساء بعد أن بات الحادث حديث الشارع والرأي العام، اشتهر اسمي على صفحات الحوادث كشاهد رئيسي ومكتشف للجريمة، بغض النظر عن كوني شاهدا لم يرَ أو يعرف شيئًا ولكن ذلك لم يحُل دون شهرتي. حقا هو حادث عجيب، لقد أثبت المعمل الجنائي تعرض نجيب للتسمم عن طريق إضافة السم لفنجان قهوته، تحضر مدام سها، رحمها الله، يوميا وجبة الإفطار تليها قهوة نجيب بيه. لم يكن هناك غريبا أو زائرا في الصباح، ملابسهم المنزلية خير دليل، من وضع السم في قهوة زوجها؟ أتكون هي من حاولت قتله؟ فلماذا قتلت ابنها؟ ثم كيف تختار لنفسها مثل تلك الميتة البشعة.

بعد أن تبنت الصحافة نظرية الجنون المؤقت لمدام سها مما جعلها تقتل أسرتها دون رحمة قبل أن تنتحر بإطلاق الرصاص على رأسها، انفجرت حقيقة جديدة قلبت الموازين. لم تكن الرصاصة المستخدمة من نوع عادي بل كانت عبارة عن مادة شديدة الانفجار، فمن أين لربة منزل بمواد شديدة التفجير، كان ذلك هذا هو السبب في انفجار رأسها تمامًا ملطخا الغرفة بشظاياه.

تراجعت تهمة القتل عن مدام سها لتلتحق بزوجها نجيب، عمله كمدير لأحد أكبر محاجر الرخام يتيح له الحصول على المواد المفجرة المستخدمة في المحاجر. بالفعل أثبت سكرتيره حصوله على كمية من نوع جديد من المواد المفجرة كعينة لإرسالها لبحثها في المعامل المركزية، هو من فقد صوابه فقتل زوجته وابنه ثم انتحر. بدأت الشائعات تحوم حول الأسرة من جديد، أقواها شائعة تتهم الزوجة بالخيانة وتتعاطف مع الزوج المخدوع، بالتأكيد اكتشف خيانتها وعدم نسب طفلها له فقتلهم انتقاما لشرفه المهدور. ذلك الدافع الوحيد المنطقي للدموية البالغة للجريمة. شهور مرت وكادت الناس تنسى الحادث الأليم. وجدت عملًا آخر واستقرت حياتي من جديد عدا كوابيسي الليلية للمشاهد البشعة التي لم تمح بعد من ذاكرتي، فرغم أعوامي الخمسين إلا أنني لا أحتمل رؤية الدماء. قبل أن تنطلق صحفية مغمورة برج الرأي العام من جديد بطرح سؤال بسيط، أين سلاح الجريمة؟ أين المسدس المستخدم في إطلاق المادة المفجرة على رأس الزوجة الخائنة؟ بالتأكيد لم يخرج نجيب ليتخلص من سلاح جريمته قبل أن ينتحر. لماذا لم يستخدمه مع نفسه؟ ربما رأف بحال الصغير، من عده ابنه لسنوات، فقام بشنقه رحمة به، لكن لمَ يعذب نفسه بسم بطيء ويدع نفسه يتألم لساعات وأكبر دليل على ذلك تأوهاته التي سمعها الطاهي وزحفه في اتجاه الباب. لماذا لم يستخدم وسيلة سريعة ومضمونة كما أنها متاحة له؟ أجبن عن تفجير نفسه بعد أن رأى ما فعله بزوجته؟

بالطبع زحف بحثا عن نجدة محتملة، أمل أن أنقذه من التسمم، هنا فتحت القضية مرة أخرى بحثا عن سلاح الجريمة، ثار الرأي العام ورجل الشارع على تهاون الشرطة في بحثها، زادت وسائل الإعلام من تهيج رجل الشارع والاستهزاء والسخرية من فشل حل طلاسم القضية الغامضة. صدر قرار بمنع

النشر في تلك القضية لحين الانتهاء من التحقيقات والوصول للجاني الحقيقي. كاد رجال الشرطة يفقدون صوابهم من غرابة تلك القضية، لم يجدوا سلاح الجريمة رغم بحثهم المضني، فقط أثبت المعمل الجنائي قتل نجيب بسم بطيء المفعول مما استلزم ساعتين على أقل تقدير لحدوث الوفاة، ذلك ما جعله آخر من وافته المنية، أول من قتل هي سها بإطلاق طلقة محملة بمواد شديدة الانفجار عن قرب فلفظت أنفاسها على الفور، أما حازم فقتله لم يأخذ وقتًا وحتى لم تبدُ أي مقاومة لشنقه. تحت ضغط الاحتقان تمت إعادة التحقيقات بشكل مكثف، جملة واحدة أنهت كل شيء.

في إعادة استجواب مسعد بواب العمارة المنكوبة عقب على خوفه من مسئولية تحطيم باب الشقة بعد أن دعاه عم بدوي، أنه سمع نجيب بيه، رحمه الله، وهو ينادي على بدوي بنزعاته المتأوهة قبل أن يصمت صوته للأبد. استنادًا إلى تلك الشهادة تم تحويل أوراق بدوي سليمان لفضيلة مفتي الديار المصرية بعد الحكم عليه بالاعدام لقتله أسرة بريئة بالكامل. استندت النيابة في دعواها إلى قدوم بدوي دون أن يلحظ البواب موعد دخوله، فلربما جاء باكرا لينفذ جريمته الشنعاء مع العلم أنه من مكث وحيدا في مكان الجريمة إلى أن دعا البواب لمشاركة اكتشاف جريمته بهدف البقاء بعيدا عن قوائم المشتبه بهم، كما أن القتيل لفظ اسم بدوي دلالة على اسم قاتله في محاولة لدفع سير العدالة لمجراها الصحيح، أخيرًا أُغْلِقَت القضية بإعدام الطباخ وأغلقت الشقة المشئومة للأبد.

بعد مرور سنوات وسنوات، نفس العمارة وأمام نفس الشقة يقف شاب يحاول فتح بابها بيدٍ مرتعشة، دفعه فضوله لمعرفة كنه الأصوات القادمة من تلك الشقة منذ أن سكن في الدور العلوي لها، لم يقتنع أمجد بخرافات ومبررات البواب العجوز مسعد عن جريمة قتل ثلاثية تمت على يد

طباخ الأسرة وأصر على أخذ مفتاح الشقة منه، بالتأكيد يوجد سبب منطقي لتلك الأصوات المستمرة عبر الدهور. خطا لداخل الشقة وأضاء ما وصلت إليه يديه من أضواء. سطعت الشقة بالضوء وأطبق عليها السكون، ردد أمجد ما يحفظه من آيات الذكر الحكيم محاولا نشر السكينة في نفسه، بحث في كل أرجاء الشقة حتى يئس من وجود شيء، لا أصوات ولا دليل على حياة داخل الشقة منذ سنين. أغلق كل الأنوار مجددًا استعدادا للعودة من حيث جاء، بعد أن خرج من الشقة وقبل أن يغلق بابها خلفه رأى شبح رجل مرَّ أمامه، شلته الصدمة فلم يتحرك أو ينبس ببنت شفة، هنا رأى شبح طفل صغير يلهو بحقيبة أباه، يأخذ منها بودرة يملأ به مسدسه اللعبة حتى أتى والده، شبح الرجل، ليصيح فيه مؤنبًا ودفعه بيده ليسقطَ الشبح الطفل أرضًا باكيًا. خرج الشبح الطفل ليأخذ بعضا من سم الفئران ويضيفه لزجاجة البن في المطبخ.

يظهر شبح سيدة تقوم بتحضير الإفطار ودعوة الآخرين له. يأكلون في توجس حذر، تضع شبح السيدة فنجان القهوة لزوجها في مكتبه قبل أن تذهب لتستكمل نومها بعد أن داعبها النعاس مجددا. يشرب الشبح الأكبر القهوة ويشعر بتعب، يراقبه شبح الصغير بترقب وخوف، لم يقصد أن يسبب لأبيه كل هذا الألم، أراد فقط معاقبته على عنفه معه. ينظر لأبيه في غرفة مكتبه ثم ينظر لباب حجرة والدته، يخشى أن يلومه أحد ويعاقبه على ما بدر منه، ترتفع صيحة ألم من الأب، يسمع صوت استيقاظ أمه، تنتابه الحيرة، يدخل لأمه ليلهيها عن أبيه، يفرجها على لعبته الجديدة، مسدسه الأثير بحشو بودرة بيضاء مكان الطلقات، دون أن يدري انطلقت طلقة من مسدسه انفجرت على أثرها رأس أمه بمشهد مفجع، لم يحتمل الصغير فسقط مغشيا عليه. من بعيد يصارع الأب آلامه في حجرة المكتب. أفاق الصغير ليهرع هلعا لأبيه يبكيه أمه، سقط الأب أرضا يصارع الموت، لم يتحمل فذهب لغرفته،

مستخدما حبلا متينا طالما قفز من فوقه لهوا ليشنق به نفسه، علقه في شماعة دولابه وأحاط بها عنقه ثم قفز ليرتاح من عذاب نفسه وتكفيرا عما اقترفت يداه. يزحف شبح الأب من مكتبه، يسمع صوت طرقات على الباب، يستمد منها عزيمة تدفعه للاستمرار. قرب الباب يلفظ أنفاسه الأخيرة متأوهًا داعيًا من يطرق الباب لنجدته.

هنا أظلمت الشقة تمامًا مجددا وسكنت تمامًا. أغلقها برعب وهرع أمجد لشقته ليدثر في أمانها من رجفة قلبه. الغريب أن الأصوات لم تعد تصدر من الشقة بعد الآن، هدأت الشقة تمامًا وسادها صمت القبور بعد أن روت أشباحها جريمتهم. مر أسبوع يخشى أمجد النزول حتى لا ترتطم عينيه بالشقة الملعونة، يهابها كالجحيم، قرر البحث عن شقة أخرى يستأجرها قريبا من هنا ومكان عمله. في ظهر اليوم التالي سمع صوت طرقات تأتي من الدور السفلي. ربما رغب أحد في تأجير الشقة الملعونة بعد أن صمتت أصواتها. هبط الدرج ليتخشب في مكانه، شبح عجوز يقف بمواجهة الباب ويطرقه بعنف مناديا على أفرادها، شبح الطباخ المسكين، لا أمل في تلك الشقة ولا نهاية لأشباحها. هرب أمجد من الشقة والمنطقة بأسرها مقسما بعدم العودة للمعادي تحت أي ظرف.

خبر جانبي في صفحة الحوادث: القبض على الطباخ قاتل أسرة المعادي.

(7)

جلست شيرين في المقهى من أجل قليل من القهوة، لم تعبأْ بالنظرات المتعجبة والمستنكرة لوجودها على مقهى بلدي في مثل تلك الساعة المبكرة، فقط قليل من القهوة والهدوء هو كل ما تحلم به لمواصلة شقائها اليومي. رفضت شيرين عرض صبي المقهى الساخر بتنزيل طلب نرجيلة وما لبث أن تركها لحال سبيلها. شيرين امرأة جميلة هادئة في منتصف عقدها الرابع، يوحي مظهرها برقي مستواها وعدم ملائمته لما حولها.

نفضت شيرين همومها جانبًا، تتمتع بوحدتها للحظات بعد أن أوصلت أولادها لمدارسهم. منذ عودة زوجها الدكتور حسان بعد انتهاء عقد عمله بالخارج تحولت حياتها الرتيبة لجحيم مستعر، لم يعد زوجها الحاني الذي تنتظر إجازته السنوية بفارغ الصبر، بل عاد آخر متجهم ناقم عبوس. انتهاء عمله وعودته التي طالما حلمت بها تحولت لكابوسٍ حي. استشاري اكتسب مكانة وخبرة عظيمة وعاطل. حسان استقبل عامه الخمسين منذ عامين، يحتفظ بكامل لياقته الصحية والفنية، لا تعلم حقًا سبب عدم تجديده لعقد العمل كما ظل يفعل دومًا لأعوام، هل حقًا كما قال اكتفى من الغربة ومن العمل ويرغب في الراحة والهدوء. عجبًا، منذ حضوره فرت راحتها إلى الأبد. تحبه حقًا، تعزه جدًا ولكن أحواله في الفترة الأخيرة تثير جنونها، تدخله السافر في كل شيء مهما صغر، قوائم أوامره ونواهيه التي غالبا ما يتراجع عنها بعد لحظات مثيرا حنقها لأبعد الحدود، الملل والفراغ أعداؤها الجدد، ليس لأنها تعاني منهم بل لمعاناة حسان منهم ودفعها هي ثمنهم، بقدر رغبتها المؤخرة بإلقاء ثقل حديدي على رأسه إلا أن قلبها يتمزق من أجله.

تراه كل يوم يبلي سجادها العجمي مشيًا كليث حبيس، يبحث عما يقضي به يومه، عن شيء يلتهم ساعات يومه الطوال فلا يجد سواها في المنزل. يعبث بنظامها الصارم في المنزل وفي تربية الأولاد. ترسل نظرات الشفقة لأولادها حين يقرر مساعدتهم جبرًا في دراستهم، تشفق عليهم من عصبيته المفرطة، تشفق عليه من رفض الجميع لمساهماته، تشفق على نفسها من حياة بائسة. العمل خير دواء لداء الفراغ ولكن كيف لها أن تقنعه بمعاودة العمل بعد أن قرر بدء فترة المعاش الاختياري. بالطبع لا تريده أن يبعد عنها برغم أنه حقًا في بعده علاقتهم أسعد، لديهم من الأموال ما يكفيهم ويزيد ولا تبحث عن المزيد، فقط متنفس له بعيدًا عنها ولو لساعات في اليوم، يعمل لتعود سعادته وسعادتها. تركت ثمن القهوة أضعافًا ومضت مستكملةً أحاديثها الذاتية.

ما زال اليوم في أوله. ستعود لمشاحنات الصباح مع حسان دون أن تدري سببها. وجوده عبء على روحها. هل كرهته؟ تفكر في خنقه كثيرًا ولكن فور أن يصمت تستعيد حبها له، آه لو يعود لسابق عهده، سبق أن اقترحت عليه فتح عيادة خاصة أو البحث عن عمل مناسب في كبرى المستشفيات هنا. رفض لمعرفته بصعوبة البدء في وطنه ونفاذ صبره في العودة لأول الطريق، تعوده على الإدارة والمنصب والمكانة السامية قيود تجبره على رفض أي عمل هنا. من أين لها بعمل يثيره ويجبره على العودة لحياته العملية من جديد.

التقطت جريدة الإعلانات المجانية من أمام باب شقتهم، قبل أن تولج المفتاح جاءتها الفكرة، إعلان عن زوجها، إعلان تطلب فيه عمل له، تضع شروطه وتليفونها، ربما كانت فكرة ساذجة، لكنها أملها الوحيد في عودة المياه لسابق مجراها. العمل ليس بالضرورة من أجل المال، ربما يكون إثباتا للذات، للوجود أكثر، عمله ومساعدة الناس بعلمه ثمن بخس للحياة. تراجعت

وعدلت عن الدخول، قررت طرق الحديد الساخن، توجهت لأكبر الصحف لنشر إعلانها، تتلهف لرؤية وجه حسان في الغد بعد قراءته للإعلان.

خبر جانبي في صفحة إعلانات مبوبة: طلب عمل: استشاري قلب وأوعية دموية، كفاءة في إدارة رعايات القلب والحالات الحرجة، خبرة عشرة أعوام في كبرى مستشفيات الخليج، للعمل في كبرى المستشفيات.

(8)

تأخرت منال عن إتمام عملها رغم مغادرة زملائها من أكثر من ساعة، نظرت حولها لتجد الشركة هائمة في صمت مطبق، ابتعدت عن جهاز الحاسب الآلي ورجعت بظهرها في مقعدها أخيرًا. دائما هي آخر من يترك العمل مضضا. تلفتت حولها مستمتعة بالسكون وحيدة، تلك هي لحظاتها الخاصة قبل أن يعود قطار حياتها لقضبانه. أخرجت من حقيبتها شيكولاتة واضعة سماعات هاتفها في أذنها مستمعة إلى موسيقى أغنية أنت عمري لأم كلثوم، فقط الألحان دون كلمات هو ما يحررها من عبوسها الدائم ويطهر روحها. مع لحن موسيقار الأجيال ثارت ذكرياتها، تجدد تفكيرها الدائم في مشكلة حياتها البائسة، نظرت لصورة أولادها الثلاثة الموضوعة أمامها على المكتب. هذه هي السنة النهائية لابنها الأكبر عاطف ليتخرج من كلية الحقوق، مازالت أمامها سنوات ليلحق به أخواه الأصغر وينهون تعليمهم الجامعي، هم قيدها الذهبي.

توقفت منال عن استكمال الشكولاتة خوفا من زيادة السكر. تخشى الإصابة بداء السكري المتوراث عائليا خاصة بعد أن اقترب عمرها من الخمسين، خمسون عاما قضت منهم عشرين في بؤس تام، زواجها من سعد كان أسوأ قرار اتخذته، انطفأت شمعة زواجهم بعد أسابيع قليلة لتصطدم بخلافاتهم المستمرة، ليتها امتلكت شجاعة طلب الطلاق حين كان ذلك متاحًا. صبرها وتفاؤلها في إصلاح زواجهم كان القيد الذهبي الذي أهدته لسعد ليخنقها به. لم تحتمل بخل زوجها الشديد عليها في كل شيء، تحاملت قسوته وجفاءه ظنا أنه سيتغير بعد إنجابها طفله وتحمل مسئولية أسرة، لكن الحال زاد سوءا. لم يهتم بتفاصيل ابنه وتربيته بقدر اهتمامه بمدى ما ينفقه على

المنزل، كارثتها الحقيقية في كونه شديد البذخ على نفسه، يشتري لنفسه أغلى الماركات ويضن عليها وعلى أولادهم بالقليل.

تلك الليلة عندما تعرض صغيرها لحادث كانت هي الفاصلة مع نفسها، لقد وجدت نفسها مع ثلاث أطفال ابتلتهم بأب بخيل أناني، لقد بلغت فظاعته في تبرمه من علاج صغيرهم بشكل لائق بل حنقه الشديد لمتطلبات الطبيب لما بعد الجراحة من علاج طبيعي والمزيد من الأدوية. الغريب أن منذ شهور قليلة أصيب سعد بدور برد أحال به المنزل لحالة طوارئ! كل شيء ممنوع لحين شفائه، يصرخ بصوته الجهور في أطفاله عند سماع همسهم البريء لإزعاجهم له، لقد أحضر بالفعل طبيبين للكشف عليه، انتهوا بعد خمس دقائق ببسمة وضحكة مكتومة بنصحه بعدم ضرورة أخذ أي علاج لعدم وجود ما يستلزم ذلك، فقط راحة ليومين كافية للعودة لسابق نشاطه غير المفقود، كيف لها أن تحتمل بخله الشديد في علاج ابنهم بعد ذلك؟!

احتملت منال بخله معها بأمواله وعواطفه، لكنها أبدًا لم ولن تسامحه لما فعله مع أولادها، هنا قررت أخذ قرار حاسم بانفصالها عنه لمصلحة أولادها قبل كل شيء. كانت في منتصف عقدها الثالث مع ثلاثة أولاد، لقد توسلته لتطليقها وتركها تربي أولادهم بشكل سليم، لكنه بكل عنف وعنجهية رفض بل هددها بعدم حصولها على أي نفقات للأولاد كما سيجعلها تترك الشقة أيضًا. تعلم جيدا بمدى ثرائه وأيضًا شحه الشديد. لجأت لوالديها للوقوف بجانبها لمواجهته ولكنهم خذلوها، انهالوا عليها برعب المجتمع من المطلقة وكيف لها أن تربي ثلاث أطفال دون عائل، لقد أحكموا ربط القيد حول عنقها، هي بالفعل تضع كل راتبها على المصروف الضئيل الذي يجود به زوجها الشحيح والذي بالكاد يكفيهم للعيش بحد أدنى من الإنفاق، كيف

تتحمل مصاريف دراستهم ومدارسهم؟ فكرت كثيرًا وحاولت كثيرًا إيجاد حل يجعلها تتخلص من قيودها دون مساس بحقوق أولادها دون جدوى.

قررت منال أخيرًا الرضوخ، ستظل زوجته لتربي أبناءهم، من أجلهم رضت بذل المعيشة البائسة مع سعد، سنوات مرت وهي تدعو ربها في كل صلاة أن تستطيع أن تتم رسالتها في إيصال أولادها إلى بر أمان بعيدا عن أبيهم الجاحد، مع تقدم العمر زاد الجفاء بينها وبين سعد، أزواج على الورق فقط منفصلين منذ أعوام بجدران من قسوة نجح بكفاءة في بنائها عامًا بعد عام. لم تفهم يومًا كيف له أن يعد زوجته وأبناءه أغرابًا عنه يتضرر من الإنفاق عنهم؟ جاءت له بالعديد من كتب الدين والفقه عله يفهم مدى مسئوليته تجاههم. لا تنسى عندما سافرت مع أولادها في رحلة لعدة أيام مع والديها، لقد عادت لتجد الشقة في حالة مزرية من الفوضى، هالتها بقايا البذخ الذي نثره على نفسه في عدة أيام هو أكثر مما ينفقه عليهم في شهور، نوعية الطعام وغيره صدمها وأكثر عندما رأت نظرة الضيق لعودتهم للمنزل، لم تمنع احتقارها له من الظهور جليا عليها خاصة مع تصريحه بحريته في معيشته حرا ينفق أمواله على نفسه فهو وحده لديه الحق فيها!

إنكاره حقها كزوجته وحق أولاده في أمواله كانت هي القشة الفاصلة، تصريحه بها أمام أولادهم لن تسامحه عليه أبدًا، نظرة الحزن في عيون أبنائها وحرمانهم من أبسط حقوقهم في معيشة كريمة، رغم كونها في استطاعة والدهم منحهم إياها، أدمت قلبها عليهم، قررت أن تظل معه لحين انتهائهم من تعليمهم وتخرجهم من الجامعة، بعدها لن يهم كيف ستعيش، ستنفصل عنه لو كان آخر شيء تفعله قبل وفاتها وتحيا ولو ليوم حرة منه.

عاد بها قطار الذكريات على رنين هاتفها، أمسكته وهي تمسح بقايا عبرات أبت إلا أن تسقط لتجد أنه ابنها عاطف، ردت عليه بشوق فهم سلواها

في حياتها المقفرة، يطمئن عليها وتناقل الهاتف لتسمع أصوات أبنائها يقصون عليها آخر مغامراتهم في معسكر الشباب، تشتاق كثيرًا إلى شقاوتهم ومزاحهم، منذ ذهابهم إلى ذلك المعسكر وزادت وحشة روحها كثيرًا، تظل تسير في الطرقات على غير هدى حتى يضنيها ألم أقدامها فتعود لمنزلها البارد من أجل النوم. اليوم أنهكتها الذكريات، قررت العودة مبكرا إلى المنزل بالتأكيد ستجد ما يلهيها في أعماله المتعددة.

دخلت إلى منزلها تحلم بحمام دافئ ونوم عميق، ليتها لا تقابل سعدًا فينهال عليها بالتوبيخ والسباب دون أسباب كالعادة. ستتسحب دون أدنى صوت عليها تصل إلى حجرتها آمنة من بطشه. مهلا، تلك الأصوات!! التصقت منال بباب غرفته تتصنت عليه، هل يعقل أن يخونها سعد في منزلها؟! نزفت كرامتها. رغم كرهها لحياتها مع سعد طوال تلك السنوات إلا أنها لم تعتقد أن من الممكن أن يخونها يومًا، فضلا على أن يجد أخرى ترضى به، ارتفعت حاجباها لرقته، لم تستمع لمثل هذه الرقة في كلامه يومًا، من معه هي خائفة حقا من وجودها في شقته، يتفقان على زواج سري ليكلل حبهما الخائن. هنا ثارت كرامتها وقررت أن تفاجئهم وليكن ذلك سبيل فرارها بعيدا عنه وبكرامتها. عندها سمعت صوته مرتجفا، توقفت لتسمع اعترافه لحبيبته بخوفه من رد فعل زوجته وأولاده، فضلا عن زملائه وعائلته. لأول مرة تستمع منال إلى ضعفه، حقا لقد مل من قسوته وحياته الجافة، أمنيته أن يمكث معها ويبدأ حياة جديدة معها، يشعر بفداحة ظلمه لزوجته ولكن تأبى كرامته الاعتذار، هل يعتذر عن سنوات الشقاء لكليهما؟

هنا شعرت منال بأزيز من حقيبتها، اللعنة سرعان ما ينطلق هاتفا ليدوي صوته في أرجاء الشقة، لم تجد ما تفعله سوى فتح باب غرفة سعد عنوة، نظرتها الذاهلة كانت لجرأتها الشخصية في اقتحام الغرفة، أقدمت

خطوتين فاغرة الفم. لأول مرة ترى نظراتها المرعوبة في عيون سعد، طالما خشيته ولكن الآن تبدلت الأدوار كثيرًا، لم تستمع لرنين هاتفها فقط وجدت نفسها تنهي الاتصال بمن لا تعرف من وتلتقط عدة صور، رائعة تلك التكنولوجيا فهي تسجل ما قد يعجز العقل عن استيعابه. لم يجد أحدا من متواجدي الغرفة ما يقال، أحنى الذل والعار رأسين وانخفضت الثالثة ألما وحزنا. لم تجد منال الشجاعة للصياح، تفتقر لشجاعة الفضيحة، فضيحة تلحق بأبنائها عمرهم. صمتت وتكلم الدمع. لحظات ولم تجد سعدًا، فر هاربا نذلا كما كان دوما تاركًا تلك المرأة خلفه.

لم تخفِ امتعاضها واحتقارها لتلك التي تأتي لرجل في بيته. أمرتها بالرحيل، طردتها، لن تتهاون معها أبدًا، هي... هي... هي تسقط. لم تستطع منال منع نفسها من منحها يدها لتستند عليها حتى تجلس. ليست فتاة صغيرة طائشة، أيضًا لا تبدو مبتذلة، تلاقت نظراتهم لتروي العديد. أغرب حوار قد تتخيل أن تجريه يومًا، وفي منزلها في غرفة سعد أيضًا.

تلك المرأة هي عبير، أرملة في أول عهد الأربعين، وحيدة بائسة وجدت الراحة مع سعد صديق زوجها الراحل، لم تستسغ منال أي علاقة خارج رباط الزواج، لم تحترمها على الإطلاق، فقط استوعبت وجهة نظرهم. علمت منال الكثير عن زوجها من عبير، كما لو أنها لم تعاشره يومًا. قسوته عليها تركت قلبه فارغا تعيسا، بخله على منزله لم يسعده بل أشقاه، أمواله العزيزة لم تجلب له الراحة ولم تكفه كرفيق للحياة، سألت منال نفسها لماذا إذن بحث عن سعادته بعيدا؟ لماذا لم يشملهم في نظرته الجديدة للحياة؟ لقد بحث خارجا عن بداية جديدة، وجدها مع أرملة صديقه، ذاق متعة الإنفاق عليها، تسللت عبير إلى حياته وملكت مفاتيحها، هي ساقطة باحثة عن أمواله تحت غطاء شرعي.

بالطبع جرح ينزف بقلبها وروحها، ابتعلت منال جراحها الدامية، تماسكت ليس من أجل سعد وعبير، وقصة عشقهم الممنوع المتصابي، بل من أجل نفسها وأولادها. عبير تريد سعدًا وأمواله لتحصل عليهم مقابل حريتها هي، سنوات الألم منحت لها خطة الفرار بنفسها وأولادها، لقد نوت أن تترك سعدًا آجلًا فلتجعلها عاجلًا، معها الآن الكارت السحري الذي ينهي جولاتها مع سعد بالضربة القاضية برضاه أو عدمه، ستمنحه مباركتها على زواجهم مقابل تلك الشقة ونفقة ملائمة لها ولأولادها، بعدها ليفعل ما يريد. ستتحرر أخيرًا من قيدها الحريري، لن تكون المطلقة المتمردة بطبيعة الحال، إنه حل يرضي جميع الأطراف. لتهنأ أخيرًا بإكمال رسالتها مع أولادها دون خوف، لقد حررتها خيانته منه أخيرًا.

لم يعد سعد للمنزل، بالتأكيد هو هارب مختفٍ بخزيه عن الأنظار، حتى هاتفه هو مغلق منذ اليوم المشهود. ابتسمت ساخرة، تعلم جيدا بهلعه من تلك الصور على هاتفها. ربما لم تتكلم حينها ولكن معها صور تجيد المرافعة والإدانة بدلا منها. حسنا أيام ويعود أطفالها للمنزل، تريد أن تنهي مهزلة الاتفاق قبل وصولهم، ليس أمامها إلا أن تبعث له برسالة خاصة عبر بريد القراء لجريدته المفضلة. فلتنهي آخر فصول مهزلة زواجها بإعلان غامض مدو.

خبر جانبي في صفحة بريد القراء: نداء لزوجي الخائن س. م. عد لمنزلك لدينا الكثير ليقال، لا تخف لقد أصبحت وخطيبتك أصدقاء.

(9)

تصفح لؤيّ الجريدة على عجل حتى وصل لصفحات الإعلانات المبوبة. هنا طلب كوب آخر من الشاي وأخفض صوت التلفاز قليلا من صبي القهوة. منذ إقالته من أربعة أشهر وهو يبحث عن عمل آخر، تذكر عمله الماضي في إحدى شركات الصرافة قبل أن تغلق أبوابها وتأتي بضلفها الأحوال الاقتصادية، لم يعد يأمل في عمل أفضل، فقط أي عمل يكفل به مصاريفه ويقربه من لحظة إعلانه خطوبته على محبوبة عمره. ماذا تحمل لنا الجريدة اليوم؟ بائعين، سائقين وصيادلة ليته اهتم بدراسته أكثر. لم يلق نظرة على إعلانات المحاسبين رغم كونه محاسبًا، يعلم كيف ينتهي الأمر إلى العمل كل شيء إلا المحاسبة داخل تلك الشركات.

لفت نظره إعلانٌ مميز، محاط بإطار وخط عريض. للعمل الجاد شاب قوي أمين كتوم يجيد الأعمال اليدوية يتحمل الغموض مقابل راتب مجزٍ وعمولات. أثاره هذا الإعلان، هل هو إعلان آخر عن حارس شخصي أو فرد أمن؟ لا يهم، طالما الراتب مجزٍ وعمولات سيقدم عله يحصل عليه. اتصل على الرقم الملحق بالإعلان ليرد عليه صوت كهل عجوز ويحدد معه موعد بعد ساعتين، تفاجأ لؤيّ من سرعة الموعد، لا يعلم هل يذهب بحلة رسمية في مقابلة العمل أم هي مبالغة غير محمودة، العنوان لا يبعد كثيرًا عنه رغم كونه في منطقة هادئة نوعا ما. صعد لؤيّ لمنزله لأخذ نسخة من أوراقه وتعديل هندامه قليلا، حرص على مظهره الراقي البسيط ليناسب مختلف الأوساط. لم يعلم بعد طبيعة العمل، لم يحظ بأكثر من عنوان كجواب لأسئلته

العديدة، هل هذا هو تحمل الغموض المطلوب؟ ترك أفكاره وأسرع للحاق بموعده.

مع أذان الظهر وصل لؤيّ للعنوان المطلوب، اندهش عندما وجدها عمارة سكنية لا تحوى أي شركات خاصة أو عامة، لا شيء على الإطلاق سوى مغسلة قديمة للسجاد في دورها الأرضي، بالتأكيد أخطأ العنوان، ربما هي العمارة التالية أو شارع آخر. ألقى السلام على شيخ عجوز جالس أمام مغسلة السجاد لسؤاله عن عنوانه المنشود، حلق حاجبه الأيسر لمنتصف جبهته عندما أجابه العجوز سؤاله بسؤال عن إذا كان هو لؤيّ من حدد معه لقاء العمل؟! لا، لا يمكن أن يكون الإعلان الهام هو إعلان لمغسلة سجاد!! لم يصل بعد إلى تلك الدرجة! أشاح وجهه بعيدًا وهمَّ بمواصلة طريقه والعودة إلى مقهاه من جديد.

هنا أمسكت به يد العجوز الخشنة بقسوة لا تتلاءم مع سنين عمره العديدة. هل لمعت عينه وهو يستبقيه للجلوس وإكمال المقابلة؟ شعر برهبة لم يدرِ كنهها، بالتأكيد لن يخاف ممن في عمر جده، جلس على مقعد بجانب العجوز متحاشيًا النظر في عينيه، هنا لاحظ يده التي مازالت تمسك به وإن قلت قسوتها، تنفس بعمق وزفر مرددا تعريفا بنفسه والمقدمة المعتادة في مقابلات العمل، لم يقاطعه إلا أن أنهى حديثه وتردد في تقديم أوراقه إليه، هنا بصوت أجش من شروخ الزمن سأله عن عمله السابق، ألم يستمع إلى مقدمته الطويلة؟ حسنا، أعاد عليه عمله ضاغطا على شهادته ومنصبه السابق.

ابتسم الشيخ وسأله عن الراتب، بزهو أجاب فضحك العجوز حتى دمعت عيناه. ماذا الآن؟ أيسخر منه؟ هم بالنهوض مجددا ولكن اعتذر العجوز عن ضحكه. بجدية وحزم مال عليه العجوز حتى كادت رأسه تلتصق بجبهته.

بدأ حديثه هامسا، فلتنصت يا ولدي وتفهم، العمل هنا يختلف عن أي مكان آخر، لابد أن تكون أمين نظيف كتووووم. نظر في عينه وأردف: ما تراه هنا قد لا تراه في أي مكان آخر، هذه ليست مجرد مغسلة للسجاد بل لإعادته لحالته الأولى، أفهمت؟ حالته قبل أن تلوثه البقايا والدماء وآثار الزمن، هنا ستتعامل مع ما قد يدر عليك بأضعاف راتبك الواهي، إذا وافقت على الكتمان وحفظ أسرار العمل فتحت لك مغارتنا السرية، لتتعلم النظافة كما ينبغي أن تكون، ستقع بين يديك كنوز حافظ عليها فحياتك لا تكفي لتسديد ثمنه. ثم عاد لجلسته الأولى ونبرة صوته العادية: فلتقم بأخذ دورة في المكان لترى العمل على أرض الواقع، عذرا يا بني لن أستطيع مرافقتك فقدماي تخونانى دوما.

نهضت متعجبا من حديثه الغامض، لماذا الغموض أصلا؟ ما المثير في غسل السجاد؟ يمتلئ المكان بالسجاد من مختلف الأنواع والأحجام، يبدو أنه يربح جيدا، ولكن لدرجة أضعاف راتبي، جائز! هنا تمسمرت أقدامي في مكانها وغادرتني روحي لثوانٍ، تحت قدماي في ركن منبوذ يوجد بساط تغطيه الدماء القانية، بجانبه قفاز ملطخ بالدماء، يبدو أن من كان ينظف البساط من آثار الجريمة تركه على عجل ورحل. هنا فهمت سبب همس العجوز وغموضه، النظافة كما ينبغي، ينظفون آثار الدماء والجرائم، ربما هو واجهة أو مكتب لتوفير منظفي جرائم كما قرأت في الروايات، أمين نظيف كتووووم. بئس عمل ساقني الحظ إليه، هل يحالفني الحظ بالفرار؟ قسما لن أذكر لأحد عما عرفته أو رأيته. دوى رنين هاتف فانتفضت مكاني، تناهى لسمعي صوت الذئب العجوز يتحدث، نهض بصعوبة، يبدو أن قدميه على وشك خيانته بالفعل، واتجه لمكتبه في آخر المحل. ربما يتلقى أمرا جديدا؟ أيفكر في إرسالي إليه لبدء عملي المشين معه؟ ركضت، ركضت كما لم أفعل طوال حياتي، تطاردني الهواجس والظنون، لقد تركت ملف أوراقي خلفي، بالطبع لن أعود

أبدًا ولكن أخشى أن يقع في أيدي الشرطة، ربما أسوأ، في أيدي عصابته. لأهرب، لأسافر لأي مكان. يا رب، يا علام الغيوب، وحدك عالم بي، ساعدني.

السلام عليكم، نعم هنا مغسلة النظافة، أهلًا أهلًا بحضرتك، بالطبع سأرسل من يأخذ السجاد، لا تخشَ شيئًا، كل من يعمل لدي يتمتع بأمانة تامة، كنوزك العجمية والإيرانية ستعود لك سالمةً كيوم اشتريتها فيه، إذا أردت صباغتها أيضًا، نعم نعم، ولدي يصبغ البساط ويسلمه لك جديدا في ظرف يومين، هو مشغول الآن في بساط كالح لأحد الجيران، لتأتي وتراه غدا وقد عاد جديدا بلونه الأحمر القرمزي، فلترسل لنا ما تشاء فالمحل مضمون منذ عشرات السنين ولك تخفيض خاص لتصير زبونا دائما إن شاء الله، صحبتك السلامة يا ولدي.

أنهى العجوز المكالمة وبحث بعينيه عن لؤيّ. تنهد وزفر، رحل. خسارة شكله شاب محترم، بالتأكيد لم يرض أن يعمل في مغسلة ومصبغة للسجاد، كنت سأعلمه فنون وأسرار المهنة، ما ستدر عليه شهدا بدلا من عمله بشهادته، ليوفقه الله لعمل مناسب ويرسل لي من يبغي التعلم حقا.

خبر جانبي في صفحة إعلانات مبوبة: للعمل الجاد شاب قوي أمين كتوم يجيد الأعمال اليدوية يتحمل الغموض مقابل راتب مجزٍوعمولات.

(10)

تلك الصورة مجددا، لم تفارقني لشهور. سقوط تلك السيدة إثر ارتطامنا بها، فقط وقفنا لثوانٍ قبل أن نتأكد من لفظها لآخر أنفاسها، ولنشاهد تلك الروح البريئة تموت داخلها، روحان بريئتان ذهبتا نتيجة إهمال فتحي العابث، كان يقود بسرعة جنونية، ربما لما يتعاطاه دخل في ذلك الحادث، لم يستطع تقدير المسافات جيدا، كنت أنا شاهده الوحيد، الصامت. ليتني استطعت تنبيهه قبل أن نصدم تلك الأم المسكينة، مشهدها طائرة ببطنها الكبير لتسقط صريعة هو كابوسي الحي في ذهني أبدًا، ليته تحمل مسئوليته للحادث ولم يجعلنا نفر بسرعة مضاعفة تاركينها خلفنا مضرجة بالدماء.

أرافق فتحي منذ عامين في كل مشاويره، أعلم عنه ما يخفي عن الجميع حتى أمه، أراه يستغل إمكانياته المادية في شراء كل ما يريد، أو يستدرج عطف عائلته لتحقيق مآربه، مدلل فاسد عابث لا يتحمل أي مسئولية قط. لم أحبه يومًا ولكنني أجبرت على اصطحابه أينما ذهب، أستطيع إغماض الطرف عن كذبه على الفتيات المصاحبين له دوما، لن أشفق عليهن فكيف لهن أن يخرجن مع مثله؟ ألم يرين نظراته العابثة الماكرة؟ حتى أصدقاؤه يشهدون على نذالته معهم جميعا. لم يكن بجانب أي أحد احتاج له يومًا، أناني تمامًا، عاش حياته غير عابئ بالآخرين.

تلك الحادثة هي الفاصلة حقا، كيف حتى لم يطلب الإسعاف لربما استطاعوا إنقاذ حياة جنينها بعد كل شيء، أفكر في تلك العائلة المكلومة بفقيدتهم، زوجها، كيف حاله بعد أن يتم إبلاغه أنه فقد أسرته في طرفة عين؟ زوجته الشابة وطفله المنتظر، هل لديها أطفال آخرون أجبروا على تجرع مرار

اليتم صغارا؟ هل تستطيع السنوات تطييب جراحهم؟ ماذا عن عائلتها؟ والدتها ووالدها سيفطر قلبهم على صغيرتهم. أخواتها وأقاربها أيضًا سيفتقدونها. كم من الناس متعلقين بها. حتى لو كانت وحيدة في هذا العالم، أين حقها في الحياة؟ أن تحمل رضيعها بين ذراعيها تلقمه حبا.

الموت هو راحة من العذاب إذا ما ضمنت مكانك في الدار الآخرة. أي عذاب أقسى، عذاب الفقد لعزيز أم آلام الضمير؟ أفكر دوما في عذاب عائلة الفقيدة حتى حالت أوقاتي عذابا مقيما. من يملك الضمير حقا؟ ليس كل إنسان يقاسي ويلات ضميره لما اقترفه من آثام وإلا لخلا العالم من الخاطئين. أصارع ضميري في كل لحظة أقضيها مع فتحي منذ ذلك اليوم، كيف يستطيع أن يحيا دون أي وازع من ضميره؟ ضحكات فتحي خناجر لقلبي، صوته نواح لروحي.

اليوم نسافر مجددا عبر ذلك الطريق المقفر صاحب الحادثة السابقة، مازال فتحي يقود بتهور متراقصا على أنغام أغانيه الصارخة، نقترب من المكان المشهود، كيف لنا أن نعبر ذلك المكان مجددا؟ كيف نخطو على مكان جثة القتيلة من جديد؟ هنا ارتفع صوت فتحي محدثا نفسه، لقد مر عامان على آخر مرة سافرت عبر هذا الطريق، بالتأكيد لن يظهر لي شبح تلك المرأة وإلا سيكون علي أن أخبطه مجددا. أن تكون شاهدا على جريمة قتل وتجبر على الصمت هو عذاب مضن، ببساطة كنت شريكا في جريمة فتحي تجاه الضحية البريئة، كنت يده الباطشة، أنا الشاهد الوحيد على جريمته النكراء، على طيشه وتهوره، على الفرار.

ليس الضمير في وجدان كل البشر، فأنا لست ببشر، يطاردني الحادث ليل نهار، أن تقتل وتظل حرا هو أشد أنواع الأسر عذابا، قضبانك هي ضميرك، كيف يحيا مجرم حياته مستمتعا بها دون أي وازع تجاه ضحاياه؟ أعلم أني لن

أحاكم لكنني أقاسي ليقيني من فرار فتحي بجريمته دون عقاب. عقاب الآخرة هو أشد ولكني لن أدعه يحيى حياته سعيدا، سأنهي حياتنا معًا كما أنهيها حياة تلك المسكينة وجنينها معًا، سأشعل نيران ضميري لتنتقم منا لها، سيقتل داخلي كما قتل الروح داخلها، لن أعود سيارته بعد الآن، لقد قادني دهرا آن لي أن أقوده لنهايتنا سويا.

خبر جانبي في صفحة الحوادث: في حادثة هي الأولى من نوعها احتراق سيارة بالكامل دون سبب متسببة في وفاة قائدها وحيدا على طريق مقفر.

(11)

زيّن إسلام سعيد العقد بإمضائه مناولا إياه للمعلم حسن. لم يتوان للحظة قبل أن يبيع منزل العائلة في سبيل تحقيق حلمه. قبض ثمن المنزل من المعلم حسن داعيا لله لتكون تلك الصفقة فتحة خير على متمميها. أخيرًا معه نواة حلمه، هوسه بالمشاريع التجارية أثاره من صغره، صفقاته التجارية في مرحلة الطفولة خير شاهد، أول من تاجر في الأسماك الزينة والكتاكيت بين أقرانه في المدرسة، لم يخجل من العمل الصيفي أثناء سنواته الجامعية رغم الاعتراض العائلي، فهو وحيد أبويه ميسوري الحال، بالطبع يستطيع شراء والحصول على كل ما يريد بمجرد طلبه، لكن شغفه بإدارة المشاريع التجارية هو ما دفعه للسير عكس القافلة.

تخرج إسلام من كليه التجارة بعد سبع سنوات من دخولها، رغم حبه لعملية التجارة إلا إنه لم يهتم بدراستها، انشغل في افتتاح وإدارة محل لبيع الملابس المستوردة، نجاح مشروعه استغنى به عن نجاحه الدراسي، رغبته في التوسع لعدة فروع صدها أبوه بعنف، وعده أبوه بمساعدته في تحقيق رغباته بشرط إتمام دراسته، أجبره شرط أبوه لمعاودة الدراسة على مضض والسعي لأخذ شهادة تخرجه منها، شهادته الجامعية كانت بمثابة شهادة الضمان لدى أبيه. أنهى امتحانات البكالوريوس وبدأ في الإعداد لتوسعات أعماله العديدة، لم يهتم بنزاعه مع مالك محله بشأن مضاعفة قيمة الإيجار، أرسل في طلب تشكيلة كبيرة من أحدث الأزياء لغمر الأسواق بها، دفع مقدمها حصيلة عمله سنوات.

هنا تلقى أولى الصدمات، أبلغ مالك المحل مصلحة الضرائب بمعلومات مغالطة عن عمله وبدء مشروعه، كانت النتيجة تم تقديم إقرار ضريبي جزافي بمبلغ مهول، اضطر معه لبيع سيارته وأغلب متعلقاته الثمينة والاستدانة من بعض أصدقائه لوفاء مديوناته قبل أن تتحول لقضية تهرب يفقد فيها حسن سمعته التجارية.

بعد عذاب ومحايلات استطاع أخيرًا إقناع والده ببيع أرض إرثه الزراعية وسحب ادخاراته لمساعدته في العودة لسوق العمل والوقوف مجددا على قدميه، أطلعه على خططه التجارية والتسويقية، وعده برد جميع الأموال في القريب العاجل كدين شخصي على نفسه قبل مرور عام واحد، بالطبع لم يوافقْ أبوه على فكرة كتابة وصل أمانة فهو في آخر الأمر ابنه ووريثه الوحيد. سافر أبوه وأمه لبيع ذكرياتهم وماضيهم في سبيل بنائه لمستقبله، لكن تأتي السفن بما لا تشتهي الأنفس، في حادث انقلاب سيارة والده راح على أثرها والديه واختفت حقيبة تضم كل أملاكه وورثه من أبيه. حزنه على والديه زاد مع حزنه من إفلاسه، قراره بالتجلد ومواجهة الأمر أخذ منه شهورًا.

لم يندهش إسلام لاستيلاء مالك محله عليه مع التحفظ على بضاعته رهن لحين سداد الإيجار المتأخر، يعلم أنه يطمع لمواصلة مشروعه لحسابه الخاص أو تأجير المحل بثمن مضاعف لعميل جديد، ساومه على ثمن بضاعته حتى حصل على جزء معقول من ثمنها. للوقوف من جديد في سوق العمل يحتاج لرأس مال يسنده. بالطبع لا يستطيع استرداد مقدم صفقته الأخيرة. من حسن حظه وسمعته عدم مطالبتهم بالشرط الجزائي للتأخير في إتمام الصفقة. ليس أمامه إلا آخر ما ترك والديه، منزل العائلة. طعنة ألم شعر بها في قلبه، رغم طبيعته غير العاطفية إلا أنه تألم لفكرة بيع آخر مكان جمع أسرته الصغيرة، ما باليد حيلة، ليس أمامه حل آخر، توكل على الله في

بيع منزله، مع رؤيته للمعلم حسن زاد ارتياحه لبيعه المنزل، فهو معلم وقور حسن الخلق رضي أن يأتمنه منزله.

انتشى إسلام لقبضه ثمن المنزل، ليس حبًا في المال بقدر ما يقوم بتحقيقه من آمال. حرص في قرارته ولم يتسرع في الإقدام على أي فكرة، ما معه هو كل ما يملك في دنياه، دونه هو عارٍ في دنيا المال. استأجر إسلام شقةً صغيرة في حي شعبي تكفي حاجته. درس المنطقة جيدًا بعين المال، بحث عن مشروع مناسب يثبت به نفسه، أخيرًا قرر كسر حاجز خوفه، استأجر محلًا صغيرًا وجعل بضاعته من الثياب الشعبية الجيدة رخيصة الثمن. قاوم إسلام كل الظروف الصعبة من أجل إنجاح مشروعه الصغير، جاهد في سبيل حلمه حتى قطف ثماره، من أرباحه قرر التوسع في مشاريعه كما حلم قديما، أقدم على استيراد شحنات بضائع من مختلف البلدان، عشرة أعوام مضت قبل أن يفتتح أول مصانعه للثياب الجاهزة بمواصفات وخطوط عالمية. ما يبدأ صغيرا يكبر مع الأيام، بفضل الله وإصرار إسلام على النجاح، أصبحت مجموعته الاقتصادية إحدى أكبر المؤسسات في الشرق الأوسط. لم ينسَ يومًا فضل الله عليه، لم ينسَ تشجيع أسرته له حتى وافتهم المنية في سبيل تحقيق حلمه، لم يغلق يومًا محله الصغير في المنطقة الشعبية، تلك التي آوته وكانت وجه السعد عليه، غدا بإذن الله وفضله يفتتح مصنعه الجديد في الفيوم، حلمه في أن يصير له في كل محافظة مصنع بات وشيكًا، إرثه لأولاده وأحفاده ليست مجموعة تجارية ناجحة بل علامة تجارية عالمية بأيدي مصرية، حقًا من سار على الدرب وصل.

خبر جانبي في صفحة الاقتصاد: افتتاح مصنع جديد لمجموعة السعيد في الفيوم.

(12)

ألقى النقيب محمد بكوب الماء بعنف ليسقط محطما على أرضية مكتبه. خانته أعصابه فانفلت غضبه، يعلم أنه لو أطلق سراح غضبه حقا سيحرق الجميع. ضغط على الزر أمامه مستدعيا الجندي ليأمره برفع حطام الكوب والإتيان بقدح شاي آخر، أمسك سلاحه وسرح فيه قليلا قبل أن يضعه في جرابه بعيدا، إحساسه بالعجز هو ما يفنيه، كان عائدا لتوه من المستشفى المركزي بعد أن تفقد حالات قضيته الأخيرة. في حادث متكرر غرقت مركب تحمل على متنها سبعة عشر من خيرة الشباب، محاولاتهم الساذجة للفرار من الأراضي المصرية دون حساب وبال ذلك، لم تكن أول حادثة من نوعها معه فخدمته في المدينة الساحلية جعلته يراها مرارا وإن لم يعتدها.

تذكر حادثا مماثلا من عدة شهور، إلا أن نهايته اختلفت، قضى البحر على ضحاياه. مأساة البلدة في العثور على جثث ذويهم. انقبض قلبه للذكرى. يذكر عنفه الزائد في مواجة الأهالي لدعمهم سفر أبنائهم بتلك الطريقة، تعامل معهم بغلظة معتقدا أنهم ألقوا أطفالهم في التهلكة بنفس راضية، قسوته وعدم تقديم تعاطفه على مصابهم الفادح جاء حزنا على ضياع زينة الشباب، أأعماهم الطمع حتى يسترخصوا روحهم في سبيله؟ فقط لقاؤه مع يونس هو ما أزاح غشاوته ليرى الصورة كاملة، ذكرى حواره مع يونس تؤرقه، وجده طفلا في الثانية عشرة من عمره، يكظم دموعه وآهاته، سأله عن جثة أخيه الأكبر يحيي، أشفق محمد على يونس مهابة أن يتعرف على جثة أخيه الغارق، سأله عن ولي أمره، هاله أن يكون يحيي هو ولي أمره وإخوته الصغار، يحيى الفقيد شاب

في السابعة عشرة من عمره، سن الزهور وتفتحها للشباب، أيكون رب أسرة في عمره هذا؟

لم يستطعْ أن يقسوَ على يونس كالآخرين، احتضنه مواسيا، لم يتركه حتى قص عليه قصتهم: أسرة بسيطة غادرها ربها دون عودة أو سبب، تلطمت الأم الرؤوم في الدنيا بمفردها لتكسب قوت أولادها الأربعة حتى وافتها المنية مرضا، هنا انفرطت حبات دموع يونس حزنًا على أمه، ماتت دون أن يعيَ الصغار مرضها أو دواءه، بين ليلة وضحاها أصبح يحيى رب إخوته، جاهد ليبقيهم في تعليمهم على حسابه، تنقل بين جميع الأعمال والمهن المرهقة، لم يبخل بجهد من أجل إعالتهم، لم يستطع يونس أن يرى أخاه هكذا فعمل لمساعدته، رغم مرار الفقر والحاجة إلا أنهم لم يلجأوا للمكسب السريع المحفوف بنيران جهنم، تحاملوا لكسب قوت يومهم، ضاق بهم الحال لأيام وليال، لم يدرفيها أحد بهم، أصبح أملهم في هجرة يحيي عله ينجح في العمل في الخارج وإرسال أموال لهم تكفي معيشتهم أو يحضرليأخذهم معه، ألا تعلم أن المهاجرون دون الثامنة عشر يعدون أحداثا، إن أمل الفتية الضائعين في بلادهم أن يدخلوا دور الأحداث في الخارج، إنه الحلم بمأوى والمأكل، بالدراسة والعمل المربح، بالمستقبل.

صدمتني الحقيقة، إنهم ليسوا بسطاء بل بائسين، يحلمون بالموت في سبيل الحياة، يشحذون فتات الحلم من تجارب الآخرين. لشد ما تعاطفت مع يونس، أصبح رب أخويه الصغار في سنه هذا، كيف سيعولهم؟ كيف يتحمل مثله عبئا يثقل عاتق بالغين ضخام؟ من يتحمل معه مسؤليته الضخمة؟ قررت مساعدته سرًا، توالت لقاءاتنا، منه عرفت مآسي الغرقى الآخرين، كلٌّ منهم يحمل عبئًا ثقيلًا فوق عاتقه، يحلمون بمستقبل باهر يعلمون باستحالة تحققه في بلدتهم الفقيرة، فقراء الجيب ولكن طموحهم يغنيهم ويكفيهم.

لم يقتنع بمبررهم في خوض مخاطرة غير مأهولة النتائج من أجل سراب أحلام، لم يجد ما يفعله لهم سوى تبليغ مؤسسات الأحداث عنهم، ليس فقط يونس وإخوته بل كل من قابلهم من يحيون على أمل الهجرة أو الفناء في البحر دون ذلك، علم بهروب يونس من دار الأحداث الذي أودعه لها بنفسه، حزن منه وغضب عليه قبل أن ينحيه جانبا من فكره وحياته وليته لم يفعل، ليته منحه المزيد من اهتمامه.

بعد شهور طوال يلتقي بيونس مجددا، ساهما هائما في ملكوته وأحزانه، كان يونس ضمن قضية السبعة عشر هاربا، محاولا الفرار من أذيال الخيبة سقط في اليم. لم أعرف روحه لقد تبدل كثيرًا، أرى الموج في عينيه، تجربة الغرق لم تكن هينة بأي حال، وجد نفسه وحيدا يصارع الأمواج، أنقذه المولى تعالى برحمته من غرق محقق فهو جاهل بأصول السباحة الحقة. تلقت قوات حرس الحدود الشباب قبل غرقهم بلحظات بعد أن ذاقوا وبال اختيارهم، فقد أعصابه عندما رآه، ثار عليه حقا، كيف يخوض تلك التجربة الانتحارية بعد أن غرق أخوه أمامه! أي عقل يملك إذا امتلك واحدًا أصلًا! ثورته غمرت حزنه عليه. ما أطار صوابه حقا هو رده البارد بمعاودة المحاولة الهجرة مجددًا فور أن يستطيع تدبر ثمنها، أكاد أجن، لا، لا يمكن أن يقصد ذلك، بالتأكيد مازال متأثرًا بتجربته الشنيعة!

خبط بكفه على الحائط حتى كاد يهدمه، يغالط نفسه، لقد رآها حقا في عينيه، سيسافر، سيظل يحاول السفر حتى ينجح في الوصول لأراضٍ أخرى أو يطويه البحر، يائس عاجز يعلم أنه في سبيله إلى فقد يونس كما فقد يحيى وسيفقد آخرين وآخرين، ليس في استطاعته شيء، ربما في مساعدة إخوة يونس بحياة كريمة حتى لا ييأسوا ويبحثوا عن سبل الفرار، ماذا عن الآخرين؟ سيفرج عنهم ليبدأوا في الهجرة من جديد مع غيرهم وغيرهم. ألقى نظرة على

الصحيفة قبل أن يمسك بالقلم ويكتب طلب نقله من تلك المدينة، أي مكان بعيد عن الحدود، لن يجهض حلم أحد أو يرمي مرساتهم في دوامة بؤس الحياة هنا.

خبر جانبي في صفحة الحوادث: القبض على سبعة عشر شابا في محاولتهم الهجرة غير الشرعية.

(13)

المراعي الخضراء، حلم تتوارثه الأجيال، قيل أن لأحد الأسلاف قديما حياة رائعة بين المروج الخضراء، إنها الجنة بعيدة المنال والحلم المحال، لم أشهدها يومًا ولكن ما سمعته هو حقا رائع. مساحة شاسعة من الأراضي المزروعة، غذاء وفير وهواء نقي، بالإضافة إلى رعاية رائعة لأصوافنا، أجل لا تنظروا لنا الآن فنحن حقا خراف، قديما نولد بألوان مختلفة لكن لا تهم الآن بعد أن كسانا الغبار.

تبادلت النظرات مع صديقي أبو قردان، وحده من حياة المراعي والحقول من ظل معنا، يلهب خيالنا بحكاياه عن هذا الحلم المحال، يقتات بقايا من بقايانا، لقد نسينا طعم العشب الأخضر، مذاق البرسيم هو ضرب من الخيال، نحن خراف سقنا لنكون خنازيرَ، لا تندهش فمنذ ولدنا ونحن نجوب مقالب القمامة بحثا عن لقمة العيش. هل نتوارث الذكريات؟ ربما. كل تلك الأحلام البعيدة بالطعام الوفير والحياة الوادعة هي محض أوهام لم نعِشْها يومًا، لقد ولدَتْ في وجداننا وولِدَ معنا نفورٌ من الحياة التي نحياها. نساق صباحًا كل يوم لمقلب القمامة، نبحث بين الفضلات عما يصلح غذاءً، تصحبنا عدة نسوة أولات أصول مهاجرة، صداقة قديمة تجمع بينهن وبين جامعي القمامة، صداقة مال ومصالح. ليس وحده صديق الفلاح من يحوم حولنا، فالذباب يسبح فيما حولنا كما هو الحال مع كلاب الحراسة. يوم بعد يوم تسكننا الأمراض، يملأ الرماد أفواهنا، يعلو الغبار أصوافنا، ننتظر ذلك اليوم حين يأتي هذا الرجل ذو الجلباب الملطخ بالدماء لينهي عذابنا.

اليوم مثل أمس أفقنا على عويل تلك المرأة غجرية الصوت، تسوقنا عبر الطرقات لتصل بنا إلى مقلبنا حيث مرعانا البائس، لمحت من بعيد أطراف قطيع آخر يساق من بعيد لمقلب آخر، لابد أنهم متفقون فيما بينهم على ملكية مقالب القمامة لكل قطيع. ظهر عدة أطفال ليلهوا حولنا فلم يعيرهم أحدنا بالا، حتى بدأوا في قذفنا بالحجارة، ثار من تلقي الضربات وعمت الفوضى وبدأ الخراف والنعجات بالفرار في كل الاتجاهات فزعا، هنا بدأت الكلاب في النباح عاليا متناسية صداقتنا لحساب واجبها، نباح الكلاب ومحاصرتها لنا مع ضربات قائدة القطيع بعصاها وسخرية الأطفال منا عبر الطريق أثنت من عزيمتنا ودفعنا رهابنا لمعاودة السير وفقا لما تمليه علينا العصا. بدأنا في السير متجاوزين الأطفال مصدر المشاكل تحت رقابة حاسمة، لنجد قذيفة مائية هائلة تقذف على رأس أحد كباركباشنا، بالطبع فزع الكبش ثائرا وركض تجاه الولد اللاهي، قبل أن تتدارك قائدتنا الأمر كان أحد الكلاب يتنازع مع الكبش قبل أن يصل إلى الطفل، كانت النتيجة أن الكبش نطح الكلب منفثًا عن غضبه وخوفه، أمامنا سقط الكلب جريحًا وتساقطت الدماء من قرون الكبش، جاءت المرأة قائدتنا لتنظر إلى مسرح الأحداث ووقفت صامتة إلى أن جاء ثلاثة رجال، أمامنا جميعا تم قتل الكلب المصاب بوفائه ثم اتحدوا لتقييد الكبش المنتقم لأمنه قبل ذبحه. على جانب الطريق تم تعليق لحم كبشنا لبيعه للمارة.

ألهبت ظهورنا بالعصا لنسير لمقلبنا كأن شيئًا لم يحدث، دمعة حائرة ترقرقت في عيون الجميع منتقلة بين الكباش والنعاج والكلاب على السواء، كلنا مظلومون بفساد حياتنا، نحيا نعاجا ونقتل سفاحا. ثارت نفوسنا على وضعنا الجائر، ماذا نفعل في مقلب القمامة؟ لقد اعتقدت أننا في بلد إسلامي فكيف يسمحون بمعاملتنا كخنازير نأكل القمامة؟ أنصلح حقا أن نكون

أضاحي يفتدون بها؟ إنها مسئولية الجميع من صمتوا لهؤلاء بتربيتنا بتلك الوسيلة المهينة من أجل المزيد من المكسب المادي. ثارت نفوسنا وغلت الدماء حارة في أوردتنا.

عندما حان موعد الرحيل عادوا بنا من نفس الطريق. ارتجفت أوصالي وأنا أرى الدماء تفترش الطريق، هنا حيث اشتعلت أولى ثورات النفس، أجبرت عيني على الارتفاع لأصدم برأس صديقي معلقة بجانب ما تبقى منه، لم أكن وحدي من رآه فهاج!! تجمع القطيع على العصيان على العصا. سرنا لنخرج إلى الشارع الرئيسي الفسيح ونعترضه. طردنا الجبن من قلوبنا، عشنا نعاجا وستنموت كباشا. توقف السير تمامًا في الطريق، لم يزعجنا نفير السيارات ولا ضربات العصا على ظهورنا، لن يفرقنا شيء عن التعبير عن رأينا واحتجاجنا على سبيل حياتنا الخاطئ. من بعيد ظهر قطيع آخر يتجه نحونا من الجهة الأخرى للطريق، تحوطه الكلاب من كل جانب، دب القلق قلوبنا، نقف جدارا أمام العدو لكننا لن نبغي أبدًا حربا فيما بيننا. ما يقتل الكبش كبشا آخر في صراع محموم. توترت أعصابنا مع اقتراب الجمع، بعض من كلابنا المصاحبين منضمين للقطيع الآخر، أهي خيانة؟

فجأة انضم لنا القطيع الآخر لتتفاقم أزمة قطع الطريق، لقد زهدوا هم أيضًا حياة الهوان، لقد لعبت كلابنا حلقة الوصل بيننا بعد يقينهم بضرورة الوفاء لكرامتهم وكرامتنا عن واجبهم، نظرة واحدة لعين نعجة دامعة قصت علي الكثير، ضرب كبشها بسيارة في طريق ذهابهم إلى مقلب القمامة، توقف قائدهم يكيل السباب لصاحب السيارة بعد أن لفظ الكبش أنفاسه وزهقت روحه هدرا، تحولت لمشادة كبيرة في الطريق لم تهدأ إلا بعد أن نقده صاحب السيارة ثمن الكبش. لم تنس أخذهم لجثة الكبش معهم وغمزات قائدهم لزميله بمضاعفة الربح من هذا الكبش بعد بيع لحمه. أي غابة نعيش

بها؟ لافتراس السبع أرحم من حياتنا تلك. اصطففنا بقلب كبش واحد للمطالبة بحياة ملائمة تنتهي بذبح مشرف أو الموت دونهم.

خبر جانبي في صفحة الحوادث: أزمة مرورية كبرى في أحد شوارع العاصمة لتظاهر حاشد من الخراف يرفعون شعار: لسنا خنازير.

(14)

أغلقت هاتفها بعد محادثة قصيرة أطالها النحيب. بكاؤها على رحيل زوجها الغالي وإصرارها على دعوة معارفها لذكرى الأربعين، جففت دموعها وتلاعبت بها الذكريات، تأثرت بعبارات الثناء على إخلاصها ومحاولات الجميع بشد أزرها لمصابها الفادح، صدمة وفاة زوجها دون أي شكوى أخذ بلب البعض عليها، الموت فجأة كأس مر تجرعه عذاب، لكنها لم تتعذب حقا!! ابتسامة الزهو والسخرية في داخلها تحولت لقهقهة عالية، مواساة الجميع لها شهادات تقدير لبراعتها وذكائها في إخفاء جريمتها، غدا تحتفل بالليلة الأربعين من استردادها لكامل حريتها، فلتحتفل اليوم بناجحها الساحق.

ارتدت أفخر ثيابها وتزينت بأثمن الجواهر، أرادت أن تغيظ زوجها الراحل بالاحتفال بموته بأغلى ما قدمه لها، تعطرت وتزينت قبل أن تدير موسيقى حالمة، جلست تداعب هرتها برقة. لقد تنازلت كثيرًا لارتباطها به، أحبته حقا ولكن ليس لدرجة أن تنسى كرامتها معه. عاشت خدعة زواجهم الناجح لأعوام، كم خُدِعَ الناس بهم، ظنوهم أسعد زوجين محبين، هيهات أن تصدق بحبه ثانيةً للحظة، أفاقت من هواجسها على رائحته.

رائحة عطره المميزتهاجمها من كل النواحي، فزعت وبحثت عن مصدر الرائحة، لن تلتبس عليها رائحته أبدًا. لا شيء ولا يوجد أحد معها بالشقة، ساد الظلام فجأة بانقطاع الكهرباء، زادت صرخاتها رعبًا، أتكون روحه تعذبها لقتله؟ توهمت رؤية خيالات، نادت، صرخت وما من مجيب، أخذت تدور في الغرفة تبحث كالمجنونة عن مصدر الرائحة. الرائحة لا تغيب تنهش في ذكرياتها، هي أول من أهدته بذلك العطر الثمين، هي من وقفت بجانبه وساندته في غياب الجميع عنه، نجاحه أطاح بعقله فثار عليها، اعتاد إهانة كرامتها، تحملته

وصفحت عن هفواته، لكن لم تحتمل أن تشاركها أخرى فيه، هددها قبل وفاته بشهر بزواجه من أخرى.

قرر الفراق رغم كل ما فعلته له فحكم بموته، هو من أقر مصيره، أجادت إخفاء السم في مشروبه اليومي، كل يوم تزيد من جرعته، اعتمدت على تراكم السم في دمه حتى وفاته دون أثر يذكر يشير إلي أي شبهة جنائية. قابلت نبأ وفاته بعمله بصدمة حقيقية، انهيار أعصابها ودخولها المستشفى لعدة أيام كان تذكرة نجاتها من حبل المشنقة، موقف أسرة زوجها بسرعة دفنه ومواساتها لمعرفتهم بعمق علاقتهم هو علاجها الحقيقي. انهارت أعصابها تمامًا الآن، تعبت من مهاجمة الذكريات ومحاصرة رائحة عطره لها، خوفها مما تستطيع روحه الثائرة فعله أثار جنونها. من قتل يقتل، هو من قتلها، هو البادئ والأظلم، أتكون عدالة السماء ناجزة؟ أتطاردها روحه ثائرة؟ ذلك الضغط النفسي لا قِبَلَ لها به، أفرغت محتوى علبة السم بكامله في عصيرها، ابتسمت في لحظات وفاتها فها هي العدالة تأخذ مجراها وتموت بأداة قتلها له، فلتستريحْ روحه وتهدأ، لم تعُدْ تشم رائحته لم تعُدْ تشعر بشيء.

خبر جانبي في صفحة الحوادث: انتحار جولييت العاشقة بالسم للحاق بزوجها في ذكرى الأربعين مرتدية أجمل ما قدمه لها من ثياب ومجوهرات ومفرغة زجاجة عطره الخاص عليها.

(15)

استشاط أمير حافظ غضبا وهو يتابع عملية التحضير للحفل الكبير، كان أمير يصر على الوصول بالحفل للوجه الأكمل ملاءمةً لصفوة الداعين والمدعوين، رغم زواج أمير نفسه من أكثر من سبع سنوات إلا أنه لا يتذكر اهتمامه بحفل زفافه مثل اهتمامه بحفل ابن ولي نعمته عماد الدبركي، كونه مدير مكتب وزير أعطى له العديد من الحيثيات الاجتماعية والاقتصادية، لن ينسى فضل عماد الدبركي عليه، فهو من أصر على مرافقته كمدير مكتبه كوزير. من أجل نجاح الدبركي واستمراره في منصبه ضحى أمير بحياته الخاصة وراحته. دمج كل اهتمامًاته وميوله لما في صالح ولي نعمته، مصالحه من منصبه الجديد عديدة نقلته لمستوى آخر في شهور معدودة.

صاح بنادل لم يحسن وضع باقة الزهور على إحدى الطاولات، ألا يفهم هؤلاء أنهم بصدد زفاف الموسم، زفاف المال على السلطة هو بالطبع الزواج الأبدي، رابطته أقوى من أقوى رابطة دينية أو عاطفية. ابتسم وقد تذكر عمولته المزدوجة من هذا الزواج إلى حدٍ سال له لعابه فعليًا، تمالك نفسه وأسرع بإلقاء المزيد من الأوامر، ألهب آذان جميع العاملين بالتهديد والوعيد لأتفه خطأ منهم، من يجرؤ على مخالفة إحدى الأوامر فليكتب وصيته من الآن، تركهم يتخبطون في أوامره ونواهيه وأسرع لنسيب ولي نعمته.

تخطى أمير البوابة الضخمة وحراستها ليدلف إلى القصر العملاق، دائما ما تتملكه الرهبة ما أن يخطو لذلك القصر، بهوه وحده يحتوي على ما يعادل ميزانية دولة صغيرة. ازدرد ريقه وخفض رأسه أرضًا، انتظر حتى هل عليه عياد حجازي، امبراطور الاقتصاد، وقف ناكسًا رأسه أمامه وقد أطارت هيبة حجازي كل بواعث الغرور في نفسه. ذليل ينتظر إحسانًا، يعلم أن القوة

الحقيقية في المال، ربما يضيع المنصب أما المال فلا. تذهب الأيام وتأتي غيرها وتظل سطوة الجاه هي السائدة في كل آن وعصر. طمأن الملك على زفاف ابنته، على تنفيذ كافة شروطها وأوامره، أعطاهم لواء الخضوع أملا بوعد أن يناله فتات صفقتهم معًا، نعم هو حفل قران ولكنه قران مال عياد على سلطة عماد، هو من زوجهم وبارك لهما القران، هو من حاك الحيل لتقريب كل من منير ابن عماد من ميسون عياد، من كتب قصائد الغرام وأرسل الزهور، من تأنى في اختيار الهدايا وتوصيلها، ليلا تتم آخر فصول مسرحيته، مسرحية أخرجها إيذانا ببدء عهد مالي جديد في البلاد، منكس الرأس رحل كما جاء وإن ازدادت لمعة الجشع في عينيه.

في فيلا عماد الدبركي ذهب ليعطي ولي نعمته تمامًا بحسن سير الأحوال، استمع إلى توجيهات الوزير في حفل زفاف ابنه، يعلم أن سبب تلك السعادة الغامرة على محياه يفوق زواج وحيده، هو الآخر يلهث لزيجته المادية، لتأمينه من تقلب الزمن وتغير الحال، نظر عماد لكرسي مكتبه بوله عاشق، يستقبل الموت مرحبا فاتحا ذراعيه ولا يفارق كرسيه يومًا. لم ينس أمير المرور على منير بيه فهو سيد المستقبل وسؤاله عما ينقصه، ألَّا توجد أي تعليمات له بشأن زفافه، ربما حرص أيضًا على تذكيره بحفل زفافه، يعلم بفتور المشاعر بين منير وميسون ولكن هل يهتم أحد؟ ما أن تتم الزيجة حتى تصبح أبديةً لا تُمحى إلا بالدماء.

أخيرًا استلقى أمير على أريكة في منزله، أطلق العنان لوجهه الحقيقي بالظهور، بدأ في حساب نصيبه بدقة من تلك الزيجة، دارت المشاريع في عقله تبحث عن منفذ لمضاعفة أمواله سريعًا، دخلت زوجته عليه لتجده هائمًا في ملكوت حساباته، في البداية استهوتها شهرته وسطوته، تمرغت في نعيم نفوذه، استبدلت زوجها بالجواهر والملابس، طافت العالم واستلذت بمباهج الحياة

حتى ملت، رغبت في حياة هادئة مع زوج حقيقي، افتقدته أكثر كلما زاد قربا، تعلم بسفر ذهنه بعيدا عنها دومًا، لا أمل في الانفصال أو الرجوع في قرارات حياتهم، أخيرًا لفتت نظره، جميلة شابة تلقي بهاءها على الجميع، ابتسم آخذًا بها بين يديه، ليكملا معًا الصورة المثالية للزواج السعيد الناجح، أسرع بها إلى حفله الأثير، ليشهدها مع العالم نتاج عبقريته واضعًا الأساس في مستقبل مشرق لجميع الحضور.

خبر جانبي في صفحة المجتمع: زواج الأستاذ منير الدبركي نجل الوزير عماد الدبركي بابنة رجل الأعمال الشهير ميسون حجازي أمس في حفل بهيج جمع العديد من رجال المال والأعمال والسياسة.

(16)

أسدل يسري ستائر غرفة أولاده بعد أن نجح في تنويمهم بصعوبة، أغلق بابهم بابتسامة حملت كل حبه الأبوي لهم، مساكين في عمر الزهور وفقدوا حضن أمهم الدافئ وذاقوا مرار اليتم. أعد فنجانًا من القهوة ودلف لغرفته ليستريح، يوم شاق مروينتظره الكثير، وحده في غرفته التي جمعته مع حلم عمره. اختنق من عبيرها الذي طغى ذكرياته. فتح النافذة ليتنسم عبير الليل، هواء الشتاء البارد يطفئ لوعة قلبه.

شهور انقضت منذ وفاتها ولا يزال يفتقدها، يفتقد مرحها وصخبها وحنيتها، نظرة الحزن في عيون أولاده تجلده، قضاء وقدر. موتها بين يديه قضاؤها، وقدره موتها بيديه. لم يتعمد اصطناع الحادثة، ثورته عليها في السيارة كانت كمثيلاتها، يثور وتهدئه، أعماه غضبه عن الطريق ودفعت هي الثمن، ليست وحدها من دفع الثمن، أولاده أيضًا دفعوا ثمن تهوره، أما هو ففقد روحه معها. يحاول تعويض أولاده بتدفق حبه، يعدهم بأمان يفتقده، يحاول معاودة حياتهم كما تعودوا بفضل تعليمات أمهم له، لم يفصح لأحد عن زيارات زوجته له، تزوره كل ليلة. يقضيا ساعات الليل معًا على أن يفترقا نهارا، تودعه بتعليمات تربيته لأولادهم، تعده بمتابعتهم عن بعد، وتعده بالحضور مجددا. انتصف الليل وأخيرًا حضرت، قفزت من النافذة بين يديه، ربت عليها فماءت بدلال، غمرته بمرحها وصخبها وحنانها كعادتها حتى وإن اتخذت جسد قطة.

أعاد دكتور هاشم قراءة تلك الصفحة من يوميات مريضه للمرة الثانية. منذ قدوم يسري لمصحة الأمراض النفسية والعصبية وجذبته حالته

لغرابتها، فهو هادئ عاقل حينا حتى إذا ما عكر صفو ذهنه شيء، انقلب في هلاوسه شديدة الغرابة. لم يفصح أبدًا عما يراه ويسمعه في هلاوسه، يفرض جدارا حديديا حولها، لم يجد هاشم سوى سرقة مذكرات يسري الشخصية، تحمل حقيقة حادثه قبل أن ينهار نفسيًا. بالتأكيد يتذكر ملفه المرضي جيدا، ذلك الحادث الذي أودى بحياة زوجته وكان هو المسئول عنه، لم تكن حالته النفسية مستقرة حينها ولكنه بعد فترة قصيرة استعاد هدوءه بشهادة الجميع، أصر على متابعة تربية أولاده بمفرده وتحمل مسئوليتهم كاملة، أشاد الجميع بنظامه وحسن تقديره وتربيته للأولاد، انتهى الحادث وإن خلف ألم الفقد.

منذ شهرين انقلب حال يسري رأسا على عقب، صار يبكي عاليا لوفاة هرته، أصر أن يدفنها بجانب جثمان زوجته الراحلة، كثر حديثه مع نفسه مساء، يهتاج ويفقد أعصابه لأبسط الأسباب، يتصرف بغرابة شديدة دفعت والديه لأخذ أولاده بعيدا خوفا عليهم منه، ساءت حالة يسري كثيرًا مما استلزم حجزه بالمصحة النفسية، عقدة الذنب تجاه وفاة زوجته أمر مفهوم ولكن يعجز عقله على إيجاد سبب لربط هرته بزوجته الراحلة، يعلم بالتأكيد أن الهلاوس البصرية والسمعية قد لا تعني أي شيء إلا لمريضها ولكن في كثير من الأحيان تكون إسقاط لمخاوفه الدفينة، سر انتكاس حالته هو مفتاح شفائه.

في اليوم التالي تلقى هاشم إخطارا رسميا من المحكمة لتقييم حالة يسري النفسية من أجل قضية رفعتها ضده حماته لتتولى حضانة أحفادها. لقد ذهب الموضوع ليتخذ ناحية قضائية، يكره دائما ما تئول له القضايا من تدليس وخداع، فقط صدقا لا يظن بحالة يسري سوءًا. نوبات غضبه وإن تزايدت، خلفها دائما دافع ما واهٍ، ليفرغ لتلك القضية من وقته ويفك طلاسم يسري النفسية. فور أن أتم هشام مروره على مرضاه ذهب لمقابلة والدَيْ

يسري. قابله الحاج صابر بترحاب ودعاه لدخول منزله، أعاد صابر ما كتب بملف يسري، لا أحد يعلم سبب تغييره المفاجئ، نجاح زواجه السابق وتحمله مسئولية أبنائه جعله يرفض تكرار تجربة الزواج رغم إلحاح والدته عليه، هنا اصطدمت بقدم هاشم سيارة لعبة تقاد عن بعد، أتى صبي دون الرابعة خجلًا ليحملها بعيدًا، جذبت عيناه الخضراء نظر هاشم، هو ابن يسري الصغير. التفت للحاج صابر يسأله عن صور لزوجة يسري، أحضر له صابر مجموعة كبيرة من الصور جمعت الأسرة السعيدة حينها.

تمتلك ميادة زوجة يسري الراحلة عيون خاطفة، خضراء ثلجية أو زجاجية مع بشرة بيضاء شاحبة، فقط مثل الهرة! أخذ عنها أولادها عيونها الخضراء مع خمرية يسري ليصبحوا أثيريّي المنظر. ربما لم يصل لجواب ولكنه يشعر باقتراب الفرج. ودع الحاج صابر سائلا إياه عنوان والدة ميادة، بالتأكيد سيرغب في معرفة لماذا قررت الآن فجأة ضم حضانة أحفادها إليها، عاد هاشم ليقابل يسري ويستمع له، يستمع لآهاته المعذبة لفقد زوجته مرتين. أجاد هاشم الإصغاء حتى أشرق وجه يسري بابتسامة.

في منزل منار، والدة ميادة، وجد ما يبحث عنه. سيدة قوية وإن ظلل الحزن عينيها. لقد حضر هاشم ليسألها سحب الدعوى القضائية فهو بعد بحثه واتصالاته المكثفة أصبح يعرف كل شيء. منذ البداية لقد قَصَتْ منار بنفسها بعيدًا منذ زواج وحيدتها بيسري رغمًا عن إرادتها، لم تشاركْها حياتها الجديدة أو تتعرف على أحفادها حتى وفاتها، أول مرة رأت فيها أحفادها رأت فيهم طفلتها ميادة التي أخذها يسري بعيدا عنها ليقتلها في آخر الأمر، رغبت في الانتقام لنفسها ولابنتها كما رغبت بشدة في استعادة روح ميادة المتمثلة بأولادها إلى حضنها ثانية، هي من رأت عذاب يسري لوفاة ميادة فأشعلت

ضميره ضده، طالما هاتفتها ميادة قديما لتخبرها عن سعادتها مع يسري الذي يطلق عليها هرته المدللة، حقا لابنتها هيئة الهرة في دلعها ومكرها.

لقد أخرجت منار يسري من بؤسه لتبعثه لجحيمها الخاص، لأيام خططت لتنتقم منه، أرسلت له هرة بيضاء لها نفس عيون ابنتها، استخدمت نسخة من مفتاح الشقة أعطاه لها يسري متوددا لتتقرب من أحفادها في أي وقت، أدارت المنزل كما كانت ميادة لتفعل، تترك ملاحظات ورقية بغرفة يسري مذيلة باسم ابنتها، فعلت كل شيء مستغلةً اضطراب يسري النفسي، دفعته لهاوية الجنون حين قتلت الهرة وتركتها أمام سيارته، هي مريضة تتحكم بمريض من أجل وهم، كل من عقدة ذنب يسري ورغبة منار للانتقام اتحدوا للإطاحة بصواب يسري.

هدد هاشم ميادة باتخاذ قرار حاسم وفضح خطتها في تقريره الطبي إذا ما استمرت في دعوتها القضائية، اشترط أيضًا أن تأتيَ له مرة أسبوعيًا لتتلقّى جلسات علاجية، وعدها بمساعدتها ويسري على الشفاء والتغلب على الماضي بما فيه من ألم، فمستقبل أبناء ميادة في الحياة بسلام مع عائلتهم أجمع.

خبر جانبي في صفحة الحوادث: قضية حضانة ضد أب فقد عقله أمام هرة.

(17)

صفا انتباه، صفا انتباه. مرت دقائق العذاب اليومي المسمى طابور الصباح. وقفنا نستمع للإذاعة المدرسية دون أن نعي أغلب أخبارها كالعادة، غمزتني صديقتي ريم من خلفي، نظرت لها حتى اصطدمت عيني بنظرات كابتن محمد مدرس الألعاب الرياضية والمسئول عن طابور المدرسة. عدت من جديد في محاولة فهم طلاسم الإذاعة المدرسية، لمن لا يعرف أبطال إذاعتنا فهم ثنائي العويل، رنا وسمير، يتحدثون بسرعة قصوى آكلي أغلب الكلمات مختطفي الجمل حادّي الصوت، يدوي عواؤهم يرج أرجاء المدرسة يوميا، لا أحد يفهم حرفا مما يقولون، تخيلوا أنهم رفضوا انضمام زميلنا محب لهم لعدم مقدرته على نطق حرف السين، يخشون ألا يفهم الآخرون كلامه وفي ذلك إساءة للإذاعة المدرسية، حقا محب لا ينطق السين ولكننا نفهم ما يعنيه جيدا أكثر بكثير ممن يأكلون خمسة وعشرين حرفًا في حديثهم الممل اليومي.

أخيرًا أُطْلِقَ سراحنا وصعدنا لفصولنا، جلست بجانب محب والتفتُّ خلفي حيث ريم، تبادلنا الحديث حتى حضر المعلم وبدأ يومنا الدراسي، في منتصف اليوم جلس ثلاثتنا في ملعب المدرسة نتبادل شطائرنا معًا، ذهبت لأشتري مياها غازية من أجل ريم حين عابثني سمير، يريد أن يخطف الزجاجة مني أو يسقطها أرضا، هو متنمر بغيض يهوى المقالب خاصة أمام دعاء، يسرق ضحكاتها واليوم جاء دوري معه. لكنني لن أستسلم، أسقطت الزجاجة على ملابسه لأضحك عليه وسط صخب التلاميذ، عدنا ضاحكين لنكمل يومنا، بالطبع لم أعِ حرفا فقد ظلت نظرات الفخر في عيون ريم تطاردني.

هاني... هاني. ألتفت لأجد قدم سمير أمامي، سقطت ونزع عني حقيبتي لندخل في صراع يدوي، رغم انتهاء اليوم الدراسي إلا أنه تم اقتيادنا لناظر المدرسة، اتّهمني سمير بالسبق في مضايقته ظهرا وإسقاط المياه الغازية عليه معرضًا إياه لسخرية زملائه، تعرض كلانا للتأنيب مع التهديد بعقاب شديد إذا تكرر الموقف، أغلي غضبًا من سمير، أتمنى أن يرسب في كل المواد، أتمنى لو يذهب صوته للأبد فلا يعود ليصدعنا بنعيقه كل يوم في الإذاعة المدرسة، أكره سمير وصباحا كرهته أكثر. في الصباح وجدته يتحدث مع ريم خاصتي وهي تضحك. ما أن اقتربت لأعاتب ريم حتى تم الإعلان عن بدء عذابنا الصباحي، الطابور. وقفنا في الطابور أستشيط غضبا منها، كيف تقف وتضحك معه؟ هنا وقف قلبي عن النبض، رفعت يدي اليمنى لصدري، لا أتذكر في أي جانب يقع القلب، لذا وضعت يدي على بطني فبالتأكيد سقط فيها بعد ما سمعه، بصوت واضح عالٍ يقف سمير أمام مذياع المدرسة يقول، هل تعلم أن عيون الريم هي عيون الغزال فريم تعني غزال، ينظر لريم ويضحك وتخفض هي رأسها خجلا، الخائنة، باعتني لأجله، باعت صداقتنا، لن أسامحها أبدًا.

جلست ألح على أمي لتحضر معي إلى المدرسة وتطلب نقلي لفصل آخر، لن أطيق أن أظل مع ريم في مكان واحد بعد الآن، بالفعل تم نقلي لفصل ثالثة خامس، هانت كلها ثلاث سنوات ونفترق كل لمدرسة إعدادية مختلفة، لن نحقق حلمنا بالبقاء أبدًا مع بعضنا البعض، لكن لماذا فقدت الحياة بريقها دونها؟ أصبحت المدرسة رتيبةً للغاية، لماذا يا ريم خلفتيني وحيدا؟ بتركي الفصل لم أهجر ريم فحسب بل هجرت أيضًا صديقي الفضل محب، لا أجدُ من يعوضني عنهم، بالتأكيد واصلوا صداقتهم دوني، ربما ضموا سمير اللعين

إليهم، لا هذا كثير جدا عليّ، كيف نسوني؟ لن أستسلم، لن أدع صداقة ريم لسمير أو لغيره.

بكيت لأمي، توسلتها لتعيدني لفصل القديم فرفضت، لا تقدر مقدار بؤسي، لا تعرف مكنون قلبي، لماذا هي شديدة اللؤم والقسوة معي؟ وعدتها بعدم طلب أي شيء آخر لنهاية العام، سأستمع لكل ما تقول وأنفذ لها ما تطلب، سأتناول ما تقدمه لي بل لن أعترض على كوب اللبن الصباحي وسأتجرعه وليكن أمري لله وحده حينها. هنا اندهشت أمي وسألتني بجدية عن سبب كل تلك التنازلات، لم أجد سوى أن أخبرها بحبي لريم ولوعتي في فراقها، لماذا هي تضحك بملئ فيها؟ هذا هو عيب أن تبوح سرك للكبار فهم لن يفهموك أبدًا. وافقت أخيرًا على القدوم معي في الغد بشرط الالتزام بكل ما وعدتها به، ألا تنسى شيئًا.

وقفت أمام الناظر بعيون دامعة متوسلة، يرفض أن يعيدني لفصلي ثالثة ثاني، لا يوجد مكان خالٍ أستطيع النقل له بعد مبادلة مكاني مع آخر، ليوافق على النقل لابد أن أجد مكانا خاليا أو من يبدل فصله معي، ربتت أمي على كتفي مواسيةً، بعيون ضاحكة. تبًا لهم لا يقدرون مشاعري. سأتصرف وحدي إذن، اتجهت لصفحة الإعلانات المدرسية وخططت فوقها إعلاني الخاص للعودة حيث مكاني وأحبابي.

خبر جانبي في صفحة الإعلانات المدرسية: للبدل أي ديسك خالي في فصل ثالثة ثاني.

(18)

عبث شهاب وجيه بهاتفه قتلا للملل، دائما ما يصيبه ملل شديد بعد كل حفل للعرض الخاص بأحد أفلامه، يشعر بحياته خواء بعد سابق الصخب الشديد، نظر لظهر سائقه وهو يأكل الطريق شبه الخالي بمهارة، لا يفضل اصطحابه إلا في تلك المناسبات الرسمية، يفقده وجوده متعة قيادته المتهورة.

مرر بأنامله فوق شاشة هاتفه يطوي صور تاريخه الفني، كل صورة لها ذكرى لديه، نجاحه المدوي هو حصاد سنوات، كم تألق في أدوار كتب لها الفشل، لقد نحت اسمه في عالم التمثيل بعناء. عاد لأوائل أعماله، لبداية طريق شهرته، شاب عابث بهرته الشهرة، نعم بفضل ذلك الإعلان العشوائي الذي قام بتمثيله طفلا حاز بعدها على غيرة وحسد أقرانه. لم يكن من أسرة غنية بل والده موظف بسيط أنفق صحته في تعليم أبنائه، حمدا لله لم يكن هناك الكثير فقط هو وأخته التي تصغره بعام واحد، نشئا معًا كتوأمين، خاصة بعد رسوبه عام إذاعة الاعلان ليتلازما دراسيا حتى التخرج.

كانت الصدفة وحدها هي سر تحول حياته، تلك الصدفة التي جعلته يدخل محل اللعب الشهير وقت تصوير إعلان عنه. لم يدرِ أحدهم صعوبة استجماعه لشجاعته لاجتياز البوابة السحرية للمحل من وجهة نظره، أقل لعبة هنا تعادل ضعفي راتب والده، أراد فقط أن يمتع عينه ليعطي لخياله مادة للحلم. عندما اقترب منه عدة رجال صائحين له بمشاركتهم لعمل بسيط، دب الرعب في قلبه، ظن أنهم طاردوه أو ربما ينهالون عليه ضربًا، لكنهم هللوا لحسن هيئته وجمال شكله، فهو وسيم من صغره حسن الهيئة والهندام بما يتوفر لديه من ثياب، رأوا فيه نموذجًا ناجحًا للإعلان عن محل اللعب بالتلفاز.

يومها عاد لمنزله محملًا بثمين اللعب أجرًا له على مشاركته الإعلانية، لم ينته حلمه هنا بل استمر ليزداد روعة مع مرور الأيام، بعد عرض الإعلان بالتلفاز أثار حوله موجات من الفخر لكل من يعرفونه، أخيرًا رأى في عيون زملائه حقدًا زاد من فخره واعتزازه بنفسه، تحوله من طالب عادي لنجم المدرسة أطاح بصوابه حتى إنه لم يعد يستميت بمذاكرته كالعادة. لأول مرة يذوق طعم الفشل بعد أن رسب ليعيد عامه مع أخته الصغرى، لم يحنق على أخته بعد مفاخرة أبوه بها وبتفوقها الدائم بقدر ثورته على تعسف أبوه معه في إحكام تقييده بالمنزل والمذاكرة، بعد أن ذاق الشهرة التي عوضت عن كثير مما يفتقده لم يعد يرضخ لأوامر والده، لولا أثيرته الصغرى ومذاكرتهما معًا ما استطاع أن ينجح قط.

طالما كانت دينا أخته الصغرى والكبرى معًا، فهي العقل المدبر الراجح والممسكة بزمام الأمور، بعد نجاحهما معًا وتحت إلحاحه عليها قررت مساعدته لتحقيق حلمه، لقد أصرت على زيارة مدينة الإنتاج الإعلامي كمكافأة على نجاحهم.

كانت عيني تأكل مواقع التصوير شوقًا، تجسد حينها حلمي أمامي أن أصبح جزءًا مما أرى، في جولتنا الإرشادية كان هناك مسلسل يتم تصويره ومع حركة الفنانين والعاملين وقفنا مشدوهين، لم يكن الأمر سهلًا بل العديد من الأوامر والحركة المستمرة للجميع أو الثبات كالتماثيل أثناء التصوير، لم أدرِ إلا بدينا تجذبني وتقودني لملقي الأوامر، المخرج. أعترف برهبتي وخوفي من مواجهته، ماذا عليّ أن أقول بل لماذا أقطع عليه صراخه؟ تقدمتني دينا وعرفت نفسها له ثم أخبرته بعشقي للتمثيل خاصة بعد ظهوري بإعلان تلفزيوني. ببساطة وببضع دقائق كنا تاركي رقم هاتفنا المنزلي مع المخرج مع وعد بالاستعانة بي في دور مناسب.

ظل قلبي طائرا فرحا لأيام قبل أن يفقد أمله في المكالمة المنشودة، تملكني اليأس فضقت بكل شيء، لم يعد يعجبني أي شيء، لأول مرة أبدأ بالرد السافر على أمي بل والتبجح أمام أبي، ليس لديهم ما يقدموه لي ليعيدني للصدارة بين أقراني، لن أحتمل الانزواء مجددا بعد أن سطعت شمسي، لم يعد العقاب يؤثر بي بل زاد من عنفواني، لم أدرِ أي فاشل كنت أتحول له إلا عندما جاءني الخلاص، مكالمة تسألني عن دور صغير بفيلم لبطل كبير، طرت وأجدت دوري تمامًا، توالى بعد ذلك ظهوري في الأعمال الدرامية، أصبح وجهي شهيرا، يمتدحني النقاد ملقبينني بالنجم الصاعد.

لم يعد غريبا أن ألاقي امتيازات بمدرستي الثانوية سواء من زملائي أو أساتذتي، الغريب أن مع زيادة شهرتي قلت حدتي كثيرًا، عدت لشهاب دمث الأخلاق من جديد، كأنني لا أرى نفسي إلا بطلا أما دون ذلك فيسيطر علي أسوأ ما فيّ. بالرغم من كل شيء جمعتني الظروف ودينا لنكمل معًا دراستنا الجامعية بكلية الشعب، كلية التجارة. ظن الجميع أننا توأم ولم أرغب في تغيير رأيهم بإعلاني رسوبي لعام، نظام الكلية أتاح لي الوقت لأشترك في أول بطولة مشتركة لي، هنا توالت القفزات في تاريخي المهني، لم يوقفني شيء عن متابعة صعودي حتى مرض أبي! إثر حادث سقط أبي قعيدًا لا يقوى على شيء. بعد أن فقدت أمي أيضًا الكثير من صحتها كانت خدمتهما تحتاج لمجهود وتواجد متصل. كنت في عامي الأخير بالجامعة وأحتاج الكثير من الوقت والمال لترسيخ نجوميتي. اعتمدت على دينا في مساندة والدينا وترتيب شئون حياتنا بمعاش والدي الضئيل، وعدتهم حين أصبح نجما كبيرا يتقاضى الملايين أن أنتشلهم من فقرهم هذا معي، أما الآن فلا أستطيع لحاجتي لكل قرش وأكثر.

وقع نظري على صورة جمعتني بفنانة كبيرة لم أحلم بمصافحتها يومًا لا التمثيل معها في فيلم من بطولتي، كنت أسير وفقا لأهوائي التي غالبا ما

ارتفعت بي عاليا، عشقت حياتي الخالية من القيود، أعيش بشقتي المترفة وحيدا، أنساب بين المعجبات بعد أن أدمنت الحفلات، كل إرهاق العمل يزيد من لذته بنظري، عندما طاردتني إشاعات علاقتي بالنجمة الكبيرة جبنت، كانت تكبرني بأكثر من ربع قرن!! أحببتها طبعا، فقد نشأت على حب أدوارها، حبها لي أزهى رجولتي لكن ليس لحد إعلان ارتباطنا، فجأة تحولت حياتي لجحيم من مؤيدين ومناهضين لعلاقتي بفنانة تكبرني بأعوام، حاصرتني الصحافة ولم أرد أن أخسر معجبيني، لم أعلق على شيء بل قررت الابتعاد عن الوسط قليلا لحين هدوء الحال.

عودتي لغرفتي الصغيرة بشقة والدي أعاد لي ذكريات الطفولة خاصة بعد الغياب لأعوام، بساطة المكان أضفت على روحي هدوءًا وسكينة، كنت قد خصصت مبلغًا من المال لإعانتهم على المعيشة خاصة بعد رفضهم شرائي لمنزل آخر خاص بهم، بدت دينا أكبر وأهدأ عما قبل، أتذكر أنها حضرت العرض الخاص لأول أفلامي ولكنها لم تكررها ثانيةً، كيف لم ألاحظْ من قبل شحوبها ونحولها. كانت دينا لتفوقها الجامعي، بعكسي، تم تعيينها في أحد أكبر البنوك. حسنًا بعد يومين شعرت بالغربة بينهم، لم أعد أطيق رتابة حياتهم، صورة باهتة لبريق نجوميتي. هم أيضًا يشعرون بالغربة معي، ألاقي معاملة الضيوف الكريمة أكثر من عودة الابن الضال كما اعتادت دينا تلقيبي.

عدت لحياتي وإن تأثرت كثيرًا بضيق حال أهلي ورفضهم مساعداتي المالية، انغمست في خوض الدراما طويلة المدى، مسلسل جيد يذاع على عدة شهور هو أفضل ما يجعلك جزءا من كل أسرة متابعة، أفرغت من موهبتي ما فاق إدراكي، لا أشعر بكل ما يصفونه من تعب في تحضير الأدوار فقدرتي على معايشة الشخصيات سريعة فلا أشعر بنفسي أمثل بل أجدني أعيش ضمن أحداث العمل بأريحية دون أي مجهود. صرت أنهل من المشاركات الفنية لكبرى

الأعمال فائقة الإنتاج متعددة الجنسيات، العالمية صارت قاب قوسين أو أدنى بعد مشاركتي في فيلم أجنبي جاب أغلب دول العالم.

فرض على الفنان تقديم التضحيات قرابين لنجاحه، كان قرباني عظيما فلم أحضر غسل وجنازة أبي! جاءني صوت دينا الباكي أثناء استعدادي للحصول على تكريم وجائزة كبرى، لم أجد ما أفعله سوى مواصلة حلمي فحضوري لن يعيده حيا بيننا، في سبيل النجاح تخليت عن مسئوليات وجبت علي، تخليت عن دور حياتي لأختي، قتلني حزني ولكني أتممت تعاقدي على عمل يضعني على خريطة النجوم العالميين، صارت حياتي مقسمة على عدة دول، أزيد من شعبيتي وأعمالي مما جعلني أجوب العالم، لم أهمل الحضور والمشاركة كل حين في عمل كبير بمصر بلدي عماد نجاحي، فها أنا أحضر العرض الخاص لآخر أفلامي. تعالى صفير الهاتف منبها عن استلام رسالة جديدة.

رسالة من دينا تهنئني كعادتها على كل عمل جديد، لكن الفجر قد أوشك فلماذا هي مستيقظة لهذا الوقت على غير عادتها؟ كدت أتصل بها قبل أن أتذكر فروق التوقيت، لقد نسيت تمامًا سفر دينا لإحدى الدول للعمل في الخارج مصطحبة أمي معها منذ عدة سنوات قبل أن تتوفى.

****

ما أخبارك دينا؟ جزيل الشكر لرسالتك المهنئة. أنتظرها بعد كل عمل. قبلاتي وأشواقي لك، إلى اللقاء حبيبتي.

****

قرأت دينا رسالة شهاب وابتسمت. يا لدبلوماسيته! بعد أعوام دون اتصال تكون تلك رسالته! نظرت حولها حيث الشقة الخاوية تمسك بدموعها قيد عينيها. أهذا شهاب أخوها الوحيد وآخر عائلتها؟ كم بعدت بهم الأعوام، هل هو نفسه من كان يضج منامها ليقص عليها كل أخباره قسرا كل ليلة؟ كيف قسا قلبه عليها لهذا الحد؟

ألم يفكر مرة في مكوثها وحيدة بعد وفاة والدتهما، ليطمئن عليها في غربتها القهرية؟ دوما كان شهاب مصدر سعادة وشقاء لكل من حوله. بقدر سعادتهم بنجاحه العظيم في التمثيل بقدر حزنهم على جفائه تجاه أسرته، زهد أبواها في اهتمامه لكنها لم تيأس منه. في الحفل الخاص لأول بطولاته رقص قلبها طربًا لنجاحه، تزينت كما لم تفعل وتركت رأسها يحلق عاليًا، هي أخت البطل، لكنه لم يأبه بها، سلم عليها وتركها سريعًا لمعجبيه، وحيدة في وسط غريب تلاحقها النظرات المستهزئة، غادرت تكسو وجهها العبرات دون أن يدرك شهاب رحيلها. لم يهتم لغيابهم عنه أبدًا حتى أصبحوا يتصيدون أخباره من وسائل الإعلام.

كان شهاب يتغنى بحب أسرته في وسائل الإعلام رغم عدم وجود أي اتصال بهم فعليا. نظرات الحزن في عيون أبيها بعد مرضه قتلتها، لقد افتقد عكازه حين احتاج إليه. لم يفهم شهاب نظرات الاستجداء من أمه، تستجدي عطفه واهتمامه. كانت الشهرة مغناطيسه الباعد عنا، تحملت مسئولية أسرتنا مبكرا، كان واجبي ولم أندم قط عليه، لم ألُم شهابًا على بعده وكلت له الأعذار، حتى فقدت أبي. اتصلت به مستنجدة لا أعرف ماذا أفعل، زاد من فزعي انهيار أمي حزنًا على رفيق دربها، فزعت هلعت لجأت إلى سندي الوحيد فلم أجدْه بجانبي. عاد بعد أسابيع حزينًا يجدد عرضه بتكفل معيشتنا! ألهذا

عدت؟! لم يلتئم جرح قلبي منه قط خاصة بعد أن عاد ليتباعد عنا بعد أن صرنا وحيدتين.

في رحلة حياتي الطويلة بما فيها قصيرة الأعوام فوّت عليّ العديد من الفرص، وحدها فرصة العمل بالخارج ما لم أقدر على ضياعها، كنت أريد الهروب من حزن أمي، أخذتها معي لنبدأ حياة جديدة معًا علها تطيب من صحتها. وحيدتان في بلدنا فلن تقسو علينا الغربة أكثر. مر العمر لا أهدف إلا لصحة أمي وبقائها معي، بالتأكيد تناقصت فرص الزواج مع مضي العمروعجز الروح، أكلت وحدتي من روحي كثيرًا. كنت أضحك في وجه أمي وأنا أقرأ عليها أخبار شهاب المدهشة، أتغاضى عن دموعها التي تفطر قلبي معها وأمازحها بترقب عودة الابن الضال لقطيعه، لكنه لم يعد أبدًا.

مع ضوء الصباح توالت الرسائل على هاتفي، رسائل من إخوة وأخوات لم يجمعنا دم بل غربة، يطمئنون عليّ ويعيدوني للحياة. منذ عامين كانوا نعم السند لي، حين ماتت أمي، لم يعد هناك داعي للسيطرة على دموعي أكثر. انهمرت كمثل يوم فقدت فيه روحي، يومها كنت وحدي معها، مع انسحاب الشمس بنورها انسحبت روح أمي بسلام، بين يدي. لم أهلع فقد أراحها الموت أخيرًا من عذاب مرضها، ظللت ليلتها بجانبها، آخر ليلة لي معها. جالسة بجورها ممسكة بالمصحف في يدي اليسرى ويدها في يدي اليمنى. برودة يدها أطفأت نيران قلبي، ساعتها انكسر قلبي وانفجر حزنا.

مع ضوء الصباح اتصلت بشهاب أبلغه خبر وفاة أمنا، لم أكترث لاعتذاره عن القدوم، دفنت أمي بجانبي واضعة حدا لغربتنا بعد أن أضحى المكان مكانها، بدفنها فيه. هنا وجدت حولي زملائي في العمل ورفاق الغربة بجانبي، يواسونني ويشدون من أزري، علمت أين أجد الخير والاهتمام،

استمرت حياتي وإن أصبحت أكثر وحدة، حولي الكثير وعملي يجعلني دائمة الانشغال ولكنه القلب من بات وحيدا.

اتصال من خالد قطع سيل ذكرياتي، خالد زميلي ومتقدم لخطبتي، الوحيد من أخبرته بحقيقة أخي في الغربة. امتصصت انبهاره بصبر وابتلعت اندهاشه عندما علم أني أصغره بامتعاض، لماذا لا يصدق أحد أنني الصغري؟ المهم أننا أنهينا ترتيبات الزواج، سأبلغ شهابًا بالطبع بالموعد عله يتذكر ويحضر ليكون وكيلي. أندهش من بريق شهاب العامي لعيون الجميع فلا يرون أنانيته، ها هو نسي تاريخ وفاة أمنا بالأمس وأرسل تلك الرسالة الجوفاء، فليضوي بنجمه بعيدا بعد أن اكتفيت من ضياء شهابه الزائف، لكنه أخي الوحيد سندي الهش مدمن الفرار من كل المسئوليات، هو دافعي الأقوى للزواج، لبناء أسرة تعوضني وحدتي، لخلق هدف سامٍ للحياة، تربية أطفالي ليتحملوا المسئولية أيا كان نوعهم أو أعمارهم وغرس الرحمة والمودة في قلوبهم.

خبر جانبي في صفحة الفن: شهاب وجيه يفتح قلبه: عائلته هي كل حياته.

(19)

نشرة أخبار قتيل كل يوم، ليته شهيد واحد في اليوم. هنا في أرض الفيروز تكمن شبه جزيرة القتلى، نجلس نتسامر مساء ونفترق لا نعلم من يفارقنا غدا. أنا الدكتور يوسف، شاء قدري أن تكون وحدتي في فترة خدمتي العسكرية بالعريش، بعد أن تخرجت أخيرًا من كلية الطب أجدني في خط النار في العريش! ألم يكفهم عليّ نيران الطب، نحن جيل الثورات والاستشهادات والدماء، لم أتعلم بكليتي مثلما تعلمت من وجودي السابق بالعيادة الميدانية خلال المظاهرات، مثلما التواجد في استقبال المستشفيات هو يكسب الطبيب خبرات أيضًا كالتواجد بخطوط النار.

لا يهم هنا في العريش ماذا يفقد الإنسان فهو يفقد عمره بطرفة عين. هنا تتحد الدماء، لن أقول دماء مختلفة الأديان بل ومختلفة الاتجاهات. عندما تتراكم الجثث لن تفرق بينهم، أهم مجندين أم هم من ساكني المنطقة المنكوبة، ربما كانوا من المعتدين الإرهابيين، فقط نشرة أخبار قتيل هي ما تجمعنا لنعرف من فقدنا ممن نعرفهم أو نبكي قهرًا على ميدانيين ساء قدرهم للتواجد في المكان والتوقيت الخاطئ. ظلت أرواحي السبعة سليمة إلى أن أنهيت خدمتي، ربما أكون عدت لمنزلي ولكنني لم أعد كما غادرته أبدًا، ربما خبرة أعوام أضيفت لي، اكتسبت روحًا مناضلة، رؤية الموت تدفعني للحياة.

بعد مرور ثلاثين عامًا، يجلس يوسف بعيادته الفاخرة بالبرج الطبي في أحد أرقى المناطق السكنية محاولًا إقناع ابنه طارق بتصرفه للحول دون تأديته الخدمة العسكرية، لن يجعله يهدر وقته فالوقت لجني المال وصنع مكانة رفيعة وسط المستويات الراقية، هذا ما استقر عليه بعد أعوام من كفاح الفقر قبل المرض، لن تعلم يا بني قسوة الحياة حتى تخوضها ولكني أريد

أن أقيك تجاربها النازفة، تلك التي تترك فيك جراحًا لا تلتئم مع الأيام. لم يقتنع طارق يريد أن يخوض معاركه بنفسه، تركه ابنه وحيدًا ليتنهد ويخرج من درج مكتبه جريدة قديمة بها تهنئة عائلته بعودته سالما من خدمته العسكرية، لكن هل عاد حقًا؟ كل أحلامه طويت مع صفحة الجريدة، لم يعد كما كان أبدًا، بل لم تعد مهنته كما كانت، لقد دفن إنسانيته مع من دفن هناك وعاد ليقبض الثمن.

مثاليته البلهاء في المناضلة بالعمل الجاد الشاق قادته للا شيء، تذكر قراره بتسخير علمه والاشتراك في القوافل طبية، جاب القرى لمداواة المرضى العاجزين، دافع عن حقهم بالحياة بمساعدتهم على محاربة المرض، فالمرض غادر سلاحه باتر. لأعوام بذل علمه وجهده لخدمة الآخرين فما هو جزاؤه، دوامة الروتين سحقته وضيق ذات اليد ألقت بمثاليته بعيدًا، الحياة ليست وردية أو رمادية بل هي مزيج خاص من اللونين الأسود والذهبي، إذا ما نجحت في مساعيك وخلقت لنفسك نجاح كانت لك الحياة ذهبية أو لتظل في الدائرة السوداء لباقي حياتك. كل ما واجهه في سبيل إكمال دراسته العليا، تلك الرشاوى الجبرية التي فاقت أن تكون مادية فتجاوز ذلك ليصبح كعبد لمشرفيه حتى يمنحوه درجته العلمية بعد سنوات من الشقاء ممنين عليه نجاحه، تذكر ذلك الجرح السطحي بساعده نتيجة تهجم أحد البلطجية عليه بالمستشفى، كاد أن يفقد مستقبله المهني أو عمره كله دون أن يجد رادعًا يحفظ له حياته هيبته العلمية، بدل العدوى المتدني خلق لديه سخطًا تجاه الفقر، يعلم أن المرض لم يخلق لفقراء تلك البلد بل لأثريائه، فقط لمن يستطيع دفع ثمن العلاج والخدمة الطبية.

ليحيا بكرامة كان عليه أن يخطو فوق كرامة الآخرين، كما جاءت عليه الدنيا زورًا جاء هو على الآخرين، نقض عهده مع نفسه ليسخر علمه لخدمة نفسه فقط بمقابل مادي عالٍ، كما تعذب من بطش أساتذته قديما قسا على تلاميذه وتجبر، فتلك الدنيا دوارة وقد حان وقته، لفد فاز بحياته الذهبية بكفاحه حول ترف العيش بدلا من لقمته. سيترك ابنه طارق للدنيا فهي المعلم الأول فلربما تحنو عليه فتغدق عطفها عليه ولا تسقيه مرارها، للحياة قصص أخرى تكتبها حيث شاءت لها الأقدار.

خبر جانبي في صفحة المجتمع: تهنئة حارة من العائلة لدكتور يوسف بعد إنهائه خدمته العسكرية والعودة سالما من العريش.

(20)

زفر عمرو بقوة لاعنا زحمة الطريق إلى الفجالة، ضغط بشدة على بوق سيارته ليحث سائق السيارة أمامه على اقتناص المترات السانحة أمامه، أخيرًا انحرف بسيارته جانبًا سالكا الشوارع الجانبية الضيقة قاصدا مطبعته المنشودة، تسلم عددا ضخما من النشرات الدعائية الخاصة بجمعيته الحديثة، أضاء اسم {كُنْ سندًا} لامعًا أعلى المنشورات، ابتسم عمرو بعد أن تفحص الإعلان جيدًا منقبًا عن أي أخطاء مطبعية، امتلأت حقيبة سيارته بصناديق الإعلانات.

ابتاع عمرو زجاجة مياة باردة قبل أن يخوض بسيارته زحام شارع رمسيس المزدحم دومًا، لقد بدأ طريقه ولا سبيل للتراجع بعد الآن. وقف الطريق مجددا وتعالت أبواق السيارات وسباب أصحابها. أغمض عينه للحظة قبل أن يتأمل زجاجة الماء البارد، كم يتمنى أن يسقي زوجته الراحلة قطرات منه. تذكر رحيل عبير منذ عام ونصف، الآن يفتقدها بعد أن علم تمامًا بأهميتها في حياته، الزمن يداوي الجراح حقا ولكنه يخلف عبيرها مع الذكريات.

كل من يعرفه يقسم بوفائه النادر لزوجته الراحلة، ليتهم يعلمون الحقيقة. عبير هي زوجته الثانية بعد طلاقه لسعاد، تقبلت عبير أولاده بصدر رحب بعد أن دفعتهم سعاد خلفها لتبدأ حياتها الجديدة مع زوجها، لم تفرق يومًا بين أولاده الذكور وابنتها الوحيدة، أحاطت الأسرة بحنانها وكانت هي عمادها الحقيقي، لم تشكُ يومًا من جفائه وانشغاله الدائم بالعمل، حقيقة

يعلم أنه فقد مرحه وراحته في غياهب طلاقه الأول، لم يرد أن يتقرب كثيرًا من عبير حتى ما إذا رحلت يومًا لم يعانِ فراقها.

سارت وتيرة الدنيا هادئة لسنوات، مستقرة. كبر أبناؤه وشق كل منهم طريقه. ظلت صغيرته لتعطي المنزل صخبه المعهود. لا يتذكر يومًا اشتكت فيه عبير من علة حتى صارحته بإصابتها بالسرطان وبحاجتها لخوض عملية جراحية! يا الله، متى علمت وكيف تحملت الخبر وحدها لا يعلم!! وصته أن يهتم بابنتها وأولاده كثيرًا. توصيه هو على أولاده! بعد إجرائها العملية في البداية توترت حياته لأيام، ضعفها غير المعتاد أربكه كثيرًا، بدأ في التفكير في مراسم الدفن والعزاء واستمرار الحياة، لكن لم يحدث شيء، استقرت حالتها وعاد الهدوء للبيت مجددًا وعاد له أمانُه. لم يفكرْ في الشهور التالية كيف تابعت جلسات علاجها القاسية فضلًا عن ذهابها وحيدة دائمًا.

لم يفكر في مدى احتياجها لدعمه النفسي والمعنوي لها لاستمرارها في حربها الشرسة مع المرض، ظل على أنانيته في واديه بعيدًا عنها حتى هاجمها المرض بضراوة مجددا، هنا كتبت بآلامها النهاية. افتقد رفيقة حياته بالتأكيد لكن لم يؤلمه ضميره حتى رأى بكاء أبنائه الحار على زوجته، استمع بقلب أجوف إلى لومهم لأنفسهم لأنهم لم يكونوا سندا لها في مرضها كما كانت سندا لهم طوال حياتها معهم. هي حقا سند البيت، من ندعوها فور دلوفنا للمنزل، وجودها هو الأمان والدفء، يتألم أولاده من أجلها فماذا عنه، زوجها؟ لقد تنصل من مسئوليته تجاها، لم يؤازرها في محنتها، تركها تواجه معركتها وحدها بشجاعة وانسحب بحياته بعيدا.

ربما لم يستوعب عقله شجاعتها حتى رأى رفوف أدويتها، كل تلك المسكنات الكافية لتذهب بالعقل لكنها فشلت في دفع آلامها بعيدا، قرر أن يرسل أدويتها كصدقة على روحها لمركز علاج السرطان علها تفيد في علاج

آخرين. هنا اختبر معنى الألم، الحاجة والضعف. أن ترى كمًا من المرضى مع معاناتهم الشديدة فأنت تخجل حقا من صحتك وتشكر الله كثيرًا من أجلها. لم يتوقع عندما أعلن عن نفسه كزوج الراحلة عبير أن يتلقى كل تلك المواساة، أغلب المتواجدين يتشاركوا ألمهم وعلاجهم سويا لأعوام مع عبير، ربما هم من دعموها خلفا عنه، منهم علم حقيقة الأمر، المرض هو قدر ولكل إنسان قدره، الألم هو ابتلاء ليس من دونه مفر، وحده الدعم النفسي من يحدث فارقا، هو عصا الأمل السحرية.

تلك الزيارة أحدثت أثرا في روحه. كم من أزواج يهملون دورهم في دعم شركائهم في مرضهم؟ كم من أبناء يتنصلون من واجبهم تجاه والديهم؟ كم من هؤلاء المرضى فقط في حاجة لسند يتفهم ضعفهم؟ لقد تأخر كثيرًا في خلق وقت لمساندة زوجته لكنه سيكفر عن تقصيره بدعم الآخرين. فكرته الصغرى باتت موضع تنفيذ، إنشاء جمعية لدعم المرضى نفسيا واقتصاديا، خلق أسرة متفهمة داعمة وقت الحاجة مع توعية الأسرة الأصلية بدورها ومسئوليتها، لم يجد أبدًا اسمًا لجمعيته أفضل من كُنْ سندًا.

أخيرًا وصل لوجهته حيث أول مهمة لجمعيته بالدعوة لحملة تبرعات لصالح مرضى السرطان. اليوم بدأ في الفاعليات الرسمية للجمعية بالمساعدة التطوعية لبعض الشباب الناضج بمسئوليته، سلمهم المنشورات الدعائية أملًا في ضم أكبر عدد لهدفه السامي. هنا اجتذبته ابنته من الحضور دافعةً إيّاه لمقابلة صحفية نسقت لها للدعاية لنشاط الجمعية، احتضن حماس ابنته ومضى بخطى واثقة لدربه الجديد.

خبر جانبي في صفحة صحة المرأة: جمعية كُنْ سندًا تبدأ فاعليتها بالدعوة لحملة تبرعات كبرى لصالح مرضى السرطان.

(21)

تعودت ليلى على الاستيقاظ المبكر دومًا، خاصة في أيام دراستها، صلت الفجر وجلست تتابع هاتفها، ترى الجديد من الأخبار وتوقظ صديقاتها. أعدت مشروبها المفضل، القهوة باللبن، وجلست تغتنم ساعات الصباح الباكر في مذاكرة علومها. دائمًا ما ترجع الفضل لتفوقها الدراسي إلى عادتها في المذاكرة الفجرية، تلك العادة التي ألحقتها بإحدى كليات القمة وداومت على ترتيبها الأول. قضت ساعة في المطالعة الجادة لأهم محاضراتها. انتفضت فور أن دقت الساعة السابعة، أسرعت في اللبس والذهاب للجامعة، بالتأكيد لا تريد أن تفوتها المحاضرة الأولى، دعت الله أن تجد مواصلة سريعة للجامعة.

استيقظت ناريمان كعادتها مبكرا، تثاءبت قبل أن تندفع لتبدأ نشاطها الحافل، فتحت هاتفها وحاسبها الآلي، لحظات واندمجت في عشرات المحادثات. تعلم جيدًا ما تبحث عنه، تصل دومًا لهدفها دون مجهود يذكر، استغلت رقتها وصداقاتها المتعددة في إذكاء تفوقها الدراسي. لم تأخذ دروسا خاصة لضيق يد أسرتها ومع ذلك استطاعت معرفة الأجزاء الأهم دومًا، لم تواكب أصدقاءها النجاح بل عمدت إلى التفوق الباهر. لم تستغلْ كافة مهاراتها وتربعت في المركز الثاني للدفعة. كزت على أسنانها غيظًا، كيف تظل هي ناريمان في المركز الثاني بينما تستأثر غريمتها ليلى المركز الأول دوما!

صداقتها الخادعة لليلى لم تزِدْها إلا كرها، تماثلها في المستوى المادي البسيط، لكنها ناجحة بسيطة محبوبة من الجميع. لن يستمر الحال هكذا دومًا، ستنجح في دفعها جانبا بعيدا عن مستقبلها الناجح. انتفضت فور أن دقت الساعة السابعة، فتحت خزانتها باحثةً عن طقم مناسب، أضاعت

ساعة في انتقاء ثياب تبرز فتنتها وساعة أخرى في إتمام زينتها. خطت خارج كوكبها مغلقة بابه بالمفتاح، استمعت إلى تهكمات إخوتها باستعلاء، هي من انفردت بالذكاء والجمال والتفوق. تمن على أسرتها بوجودها بينهم، يكفيهم انتسابها لهم، تركتهم وتوجهت للجامعة غير عابئة لنظرات جيرانها في المنطقة الشعبية لمظهرها السافر.

وصلت ناريمان المدرج متأخرةً، ترددت في الدخول للمحاضرة، تعلم أن الدكتور صارم في مواعيده، قطع بصرها دخول ليلى المحاضرة أمامها، تنفست واستجمعت شجاعتها وقررت اتباعها، ما أن خطت داخل المدرج حتى وجدت ليلى تعطي الدكتور ملفات كانت تحمل إيّاها، كما توقعت انهال الدكتور عليها بوابل من التأنيب لاستهزائها بمواعيد المحاضرات، على مرأى من الجميع طردها. ظلت النيران تتآكلها حية، ليلى هي السبب، لماذا لم تلتفتْ لتحذرَني من الدخول، بالتأكيد تقصد إذلالي أمام الجميع، لقد طفح الكيل.

توجهت ناريمان إلى المعمل، تلفتت حولها حتى اطمأنت إلى انشغال الجميع عنها، توجهت لمكان ليلى المعتاد في المعمل، عبثت في خرطوم لهيب بنزن المجاور لها، أنهت مهمتها وأسرعت بالخروج. أمام المدرج استقبلت ليلى وصديقاتها بابتسامة، رقة ليلى وأسفها لموقف ناريمان لم يزيدوها إلا حقدًا. ابتلعت مواساة ليلى بمزيد من الابتسامات، توجهوا جميعا للمعمل استقبالًا لسكشن جديد. دخلت المعيدة لتسأل الجميع عن تحضيرهم لسكشن اليوم عن التوصيلات الكهربائية، أنهت شرحها وأعطتهم الإذن ببدء استلام الأجهزة والوصلات الكهربية، مرت ناريمان بجانب ليلى لتسألها عن معادلة وتفتح صمام الغاز قليلًا بجوارها، ابتعدت ناريمان مراهنة على تفوق ليلى في إتمام كافة التوصيلات والحصول على الشرارة المطلوبة.

بمزيد من الأسى يرفق طلبة الدفعة مع الزهور مواساتهم القلبية لحادث زميلتهم المحبوبة ليلى الذي كلفها تفوقها الدراسي عاهة مستديمة وفقد البصر نتيجة انفجار الجهاز في وجهها. مع وعد بملاحقة المسئولين حتى يأخذوا عقابهم الرادع.

خبر جانبي في صفحة الحوادث: المعدات القديمة في إحدى الكليات العلمية تقضي على مستقبل أولى طلبته بعد انفجاره في وجهها.

(22)

الشمس، متى تأتي؟ نظر في اتجاه تلك المخازن المكلف بحراستها، داعبه النوم مجددًا، عمله الليلي يضج مضجعه دوما، ما السبيل إلى لقمة العيش الهنية إلا بسهر الليالي. سويعات تبقت قبل أن تغمر الشمس الكون بأشعتها، عندما تدب الحركة في المنطقة، ويدب الدفء في جسده فهذا إيذان بانتهاء وقت خدمته أما الآن فليتجول في مجال منطقة حراسته لينشط حواسه قليلا.

السكون رفيقه الدائم في الساعات الحالكة، مضى في جولته حتى ابتعد كثيرًا، غير عابئ بالزمان وبعد المكان، حركة مريبة أثارته، أصوات خمشات وهمهمات، ربما هي أصوات المصلين الفجرية، كلّا، فحاسته تخبره بفداحة الأمر. حاول تقصي اتجاه الأصوات، إنها تبتعد، ركض مسرعًا في محاولة للحاق بها، جسده ضخ الأدرينالين في كل خلاياه فأيقظها من سباتها، عاد له عنفوانه السابق في عمله البوليسي، هناك جريمة تتم بالقرب منه، ألا ليت الفجر يأتي ليلقي بصيص ضوء على المكان.

يقترب من الخرابة المهجورة، مرتع قاطعي الطرق وقاطنيها. هدأت الأصوات وسكنت جميعها إلا من لهاث الأنفاس. عمد إلى الحذر واقترب حثيثا من صوت الأنفاس الصاخبة في سكون الليل. هناك على الأرض رآها، لفة ينقض عليها جائل. هل أخطأ حدسه؟ أيكون جائلًا سرق طعامًا وأتى ليأكله في ملهى عن الجميع؟ داعبت أنفه رائحة عفنة، حتما تلك اللفة فاسدة، قبل أن يتخذ قراره دعاه الضال لمشاركته كنزه الصغير، اقترب فضولا بعد أن ماتت شهيته بفعل الرائحة.

هاجس أوغر بقلبه، اقترب برأسه من اللفة ليتأكد من ظنه قبل أن يتراجع مصدوما، أمامه في تلك اللفة يرقد طفل رضيع، تعاف النفس رؤيته بعد أن ظهرت بشرته زرقاء وبدأت أنسجته في التحلل، أفاق من صدمته على أخرى أشد، رأى بعينه الجثة تُنْهَش بعد أن قام الفاجر بقضم قطعة منه، هنا توقف به الزمان من بشاعة المشهد، صرخ عاويا وهو يراه يلوكها في فمه مستمتعا، ألا توجد رحمة في هذا الكون؟ أتته إجابة سؤاله من الوحش أمامه وهو يلعق فمه، لا لم تعد هناك رحمة أو شفقة في تلك الأرض بعد أن تركته أمه في مقلب القمامة المجاور، طاوعها قلبها لإلقائه دون أدنى شفقة عليه، أتحسبني أكثررحمة ممن كانت نبع الرحمة والحنان لديه! قالها واستعد لنهشه مجددًا. إذا ماتت الإنسانية فهل تموت الرحمة؟ انقضضت على الفاجر أحاربه، لم أهتم بجراحي، تحملت نهشاته في جسدي حتى استطعت أن أصرعه في آخر الأمر.

نظرت للرضيع الراقد. ربما ارتاح حقا من قسوة أمه. عمره أيام وقست الدنيا عليه دهورًا. أحنيت رأسي لأحمله بعيدًا، أخشى أن يفترسه آخر ممن انتزعت الشفقة من قلوبهم. سأتحامل على جروحي حتى أصل إلى العمران، لأتركه هناك حيث يوجد من يعطي الرضيع آخر حقوقه في دفن آدمي، حقه الواهي في أن يُوَارى الثرى. تحت أشعة الشمس انقشع ظلام الليل خوفًا. رأيت جمعا من الناس بعيدا، خرجوا ساعين لأرزاقهم، لأترك أمانتي لديهم.

ما أن اقترب من أحدهم إلا وصرخ: كلب يخطف طفلا أوقفوه اقتلوه! لم يستطعْ أن ينبح بالحقيقة، أن يعوي بجريمتهم فيفضح إنسانيتهم المغتالة، لن يترك لهم جثة المسكين. استمات في إمساكه بأسنانه، يقبض على لفته بعنف دون أن يخدش جلده الواهي، ركض في جميع الاتجاهات، يحاصرونه،

صمد أمام ضرباتهم، نزفت روحي مع دمائي، تسللت أشعة الشمس بدفئها لداخله، وضع حمله برفق قبل أن يسلم الروح بجانبه.

خبر جانبي في صفحة الحوادث: القضاء على كلب مسعور وتخليص جثة طفل رضيع من أنيابه. يناشد رجال الأمن المواطنين بالحرص على أطفالهم والإبلاغ عما يفيد في معرفة أهل الفقيد.

(23)

بطل من ورق دفعته الظروف ليكون بطلًا، ذلك بالتأكيد عنوان مناسب لحادثة أول أمس. أدار محسن القلم بيده قبل أن يقرض نهايته متأملًا، شعور بالملل تملكه، ماذا يفعل هذا الصباح؟ ففي يوم آخر دفعه الملل ليكون بطلا، تذكر ذلك اليوم وعيونه تلمع بالسخرية.

بدأ اليوم بخبر ألّا أحد من أقرانه لديه النية بحضور المحاضرات اليوم، بالطبع لن يذهب لكليته لحضور محاضراتها وحيدًا. لا يوجد ما يفعله بعد أن استنفذ كل وسائل اتصاله ولهوه، أمامه ساعتان قبل موعده مع أقرانه، لا أحد بالمنزل كذلك. خرج باحثا عن منفذ لفراغه، استمر في المشى على غير هدى حتى وصل لمحطة مترو الأنفاق القريبة منه، قرر أن يستقل المترو لمنزل صديقه، وسط الزحام وجد ضالته، أخذ في تأمل المحيطين والتفكير في وجهة كل منهم. أخيرًا جلس وعدل من هندامه قبل أن يعيد بصره بشكل أكبر في الواقفين.

تشارك مع واحد مشاكل عمله عبر الاستماع لمكالمته الهاتفية، لا يعلم لمَ تستيقظ أذنه من سباتها عند سماع محادثة هو ليس طرفًا فيها. نظر لذلك الرضيع المسكين، يبكي بحرقة، لعله يرغب في النوم ولكن تحرمه أمه وصديقاتها منه بعبثهم به. كلعبة بين أيديهم يتشاركون مضايقته بهدف إلهائه عن البكاء، لو أنهم تركوه لحال سبيله سيرتاح ويهدأ في الحال. الفتاة الواقفة هناك هي صورة للجمال، تهمس في هاتفها برقة متململة من وقفتها. كم أحسد من تكلمه! فكرت في دعوتها للجلوس مكاني والاكتفاء بصمتي في حرم جمالها الفتّان، هنا انطلقت من فمها قذائف هجائية من السباب عجزت أنا وصفها، عدت أستريح في مكاني وأملؤه جيدًا فهي لا تستحق تضحيتي.

بعد محطتين دلف رجل عجوز العربة. وقف محنيّ الظهر تظهر عليه علامات الألم. لم أعِرْه انتباهًا حتى وجدت أنظار الجميع تتجه نحوي، هل لجلوسي في المقاعد المخصصة لكبار السن والنساء وذوي الاحتياجات الخاصة أي دخل؟! دعوته، كارهًا، لمكاني ووقفت بجانبه. جلس الرجل شاكرا متمتمًا بدعواته لي مما ألان قلبي لأبدأ في مهاجمة الشباب عديمي النخوة من يحتلون المقاعد دون كبار السن والنساء! عجبا لهذا الزمان!! أخذ الرجل في بعثرة ما في جيوبه بحثا عن شيء ضائع منه، أخرج هاتفًا محمولًا قديمًا وعددًا من وصفات الدواء مع بعض العملات بفئات قليلة.

تركته بعيني لأبحث بين الوافدين الجدد عن إلهاء مناسب لتمضية الوقت. عدد من السيدات يتبارون في وصفات الأطعمة الجديدة! من يعود معهن بالتأكيد لن يجد أي من تلك الوصفات ربما اكتفَيْن بطبق الجبن كحل سريع وعملي. صرفت أذني عنهن قبل أن يسيل لعابي جزافًا. حركة أمامي نبهتني لقيام الرجل العجوز استعدادًا للنزول في المحطة القادمة. جلست مكاني سعيدًا بعودتي إليه. استرخيت وقررت أن أغلق عيني وأستمتع بجلوسي لحين وصولي لوجهتي. رأيت باب العربة يفتح ويخرج الرجل العجوز مشيرًا لي بالشكر، تجاهلته ولكن اصطدمت يدي بشيء صلب بجانبي، هاتف الرجل الجوال! تركه خلفه ومضى. دقات قلبي حلقت في عنان السماء، قفزت مناديا عليه، بالتأكيد هي قنبلة موقوتة، مع حالة الاستنفار الأمني فنحن الآن هدف سهل لتعصف بنا القنبلة. توقف بي الزمن للحظة، أهي النهاية؟ كيف قفزت من العربة في آخر لحظة وبابها يغلق، لا أعرف!

دوى صوتي هادرا مناديا بوقف هذا الرجل العجوز، تلفت لي جميع من في المحطة واقترب مني رجل الأمن، حقا سنحتاجه هنا. لدهشتي لم يفر الرجل جريًا بل تقدم بثبات نحوي مبتسمًا، أيظن أنها الشهادة، أيتوعدني أم

يهزأ مني!! صوت أم تزجر ابنها تأتي لي من بعيد. ضحايا هذا الرجل ستكون مفزعة حقا، ليتني أستطيع إيقاف تلك القنبلة أو أني لأقسم أن أجعل هذا السفاح يبتلع هاتفه بيدي. هدل قطار المترو راحلا فهي لحظات مرت منذ أن هبطت منه لكنها لروحي أعوام، وصل الرجل ليأخذ الهاتف شاكرًا ممتنًا وآخذًا إيّاي بحضنه! هل هو هاتف عادي منسيّ خلفا عن بحثه السابق؟ هل هو بريء حقا من خيالاتي؟ هنا دوّى التصفيق من حولي يهنئوني على كرم أخلاقي وأمانتي!! شد الرجل ورجل الأمن على يدي شاكرين قبل أن أجد نفسي محاطًا بعبارات الثناء.

لا يعلم إلى الآن كيف وجد صورة صغيرة له يعانقه الرجل العجوز في صفحة الجريدة. مقال جانبي صغير للغاية باستمرار الأمل في شباب المستقبل لأمانته وحسن خلقه. كيف وصل للجريدة؟ أصبحت بطلًا بين ليلة وضحاها. حمدا لله أن خوفي أمس شلوا لساني عن الإفصاح عن اعتقادي الخاطئ بوجود قنبلة. لأنعم ببطولتي فأنا أستحق، أليس كذلك؟!

خبر جانبي في صفحة الأخيرة: شبابنا أملنا، أمانة شاب تظهر حقيقة معدن شبابنا اليوم.

(24)

مازن حجازي، صحفي مرتزق، فقط لعدم نسبي لصحيفة أو جريدة ما، أشق طريقي بصعوبة في بلاط صاحبة الجلالة، أكتب مقالات نارية وأدور بها على كل الصحف والجرائد حتى نشرت لي بعض المقالات والقصص القصيرة.

الشارع هو ملهمي الأول، أن تسير فيه مختلطا بكافة فئات الشعب يلقي عليك بأعجب القصص، على مقهى صغير انتهى بي المطاف، جلست ممسكا بهاتفي أصور بيه كل ما حولي. أعيد النظر في كل صورة فلكل صورة قصة محتملة، لم أجد ما يستهويني فمسحتهم جميعا وحاسبت النادل وغادرت. على بعد خطوات تلقيت صفعةً قوية، أخذتني الصدمة أكثر من الألم! ألتفت لأكيل للفاعل نصيبًا وافرًا من بعض ما أعطى لأجدني أواجه مجذوبًا. رجل يختفي خلف لحية عظيمة وملابس رثة متسخة، استغفرت الله وأكملت طريقي لتلتقط أذني كلمة عذرا باللغة الفرنسية وبلهجة سليمة! نظرت حولي فلم أجد إلا المجذوب فهل يعقل ...؟

حدقت فيه بالكامل ولكنه استمر بطريقه غير عابئ بي. اتبعته عن كثب، هو مذهل ببساطة. هادئ حينا يتحدث برقي لأشخاص وهميين حتى إنه ليستخدم بعض الكلمات الأجنبية، أحيان أخرى عصبي يطيح الضرب فيما حوله سواء كان الهواء أو بعض المارة المساكين. ما قصته؟ هل تعلم تلك الكلمات من السائحين؟ خطف شطيرة من أمام أحد رواد المقهى وأسرع بالفرار، جاء صبي المقهى ليراضي زبونه معلّلًا بأنه صبي مجذوب يشتكي علة برأسه ولا يدري ما يفعله، هنا كان المجذوب ضاع مني في الزحام فجلست في

المقهى مترقبًا فرصة لأسأل الصبي المزيد من المعلومات عن المجذوب، كوب من الشاي والعديد من المعلومات انهالت عليّ من الفتى. لقد ظهر فجأة في المنطقة منذ عدة سنوات، عمره ليس حقا كبيرا فهو بالكاد في عقده الثاني، كان تائهًا شريدًا، حاول العديد مساعدته لكنهم فشلوا في التوصل إلى معلومات عنه أو أهله، رق قلب الكثير له فهو يبدو من مستوى أفضل ولا مكان له في الشارع، حاول أحدهم تسليمه للشرطة ولكنه دوما يهرب ويعود ليفترش الأرصفة.

أشار لي على صاحب المقهى وأكمل، بأنه حاول سابقا أن يجعله يقيم في المقهى نظير خدمته الزبائن ولكن حالة عقله غير مستقرة، فهو هادئ طيب كطفل صغير ثم في ثانية تثور ثائرته فيصيح ويضرب من حوله جميعا بقوة غاشمة، حالته تدهورت مع الوقت وكثرة بقائه طريدًا في الشوارع. لم يعد يتعرف عليهم كسابقا وعنفه ازداد مما ألزمهم طرده إلا أنهم يمنحوه طعاما متى أراد.

في اليوم التالي باكرا كنت أمشط الشوارع بحثا عنه فلم أجده، ظللت أبحث عنه طيلة أسبوع كامل دون جدوى حتى وجدته صدفة ينهال على رجل ضربًا بزجاجة فارغة، احتاج الأمر تدخل الكثيرين لفض الاشتباك، تم اقتياده لقسم الشرطة فإصابة الرجل بالغة وربما لمكانته فهيئته تدل على علو مركزه. تم تحويله لإلقاء كشف صحي على قواه العقلية، عندما ذهبت للسؤال عليه بعدها لم أعرفه، بعد أن حلقوا له لحيته ومنحوه ثيابا نظيفة ظهر عمره الحقيقي، حقا هو شاب وديع، مختلف تمامًا عن مجذوب الشوارع ذي الزجاجة الفارغة.

في مصحة الأمراض النفسية والعصبية رأيت دنيا أخرى، تصادقت مع ممرض قديم بالمصحة، صرت أزوره كثيرًا لأنهل من قصص وافديه، ذلك المجذوب هو شاب يعرفه من أعوام، تعرض لصدمة عنيفة لم يبح بها لأحد

أظهرت مرضه العقلي، أن تبتلى أسرة بمريض عقلي هو أمر صعب، كثير من الأسر يتخلون عن دورهم ويفقدون زمام الأمور إذا ما اقترن المرض بالعقل، هي حكاية في كل بيت، أشفقوا عليه لكنهم لم يحتملوا نوبات غضبه، مع الوقت يصبح الهروب منه هو حلهم الأمثل، تركه بعيدًا والمضي قدما في الحياة بدونه كأن لم يكن أبدًا.

رأيتها قسوة، فما حيلة المريض بمرضه! تابعت وبحثت. ليس المرض العقلي فقط هو المدان بل المرض النفسي والجهل أيضًا، جميع مستشفيات ومصحات الصحة النفسية والعصبية محدودة ولا تغطي احتياجات المرضى على مستوى البلد. لا توجد أي إحصائيات دقيقة عن عدد المرضى العقليين خلفا عن النفسيين وما أكثرهم. العيادات الخاصة هي كنز لأصحابها، منحة علي بابا بعد النجاح في بناء سمعة طيبة. أدويتهم هي جد غالية، ليس في استطاعة الكثيرين توفيرها.

كتبت مقالًا ناريًا، طرحت بعمق قضية المرضى النفسيين بوجه خاص، أزمة ندرة الأطباء المختصين وعدم توافر أماكن في المصحات الحكومية، غلاء الدواء ونظرة المجتمع الجائرة، كتبت من قلبي عن ترك أسر لأولادهم يفترشون الأرصفة وتبرأهم منهم، كتبت وكتبت ولم يُنْشَر شيء. لم أجد من يتحمس للقضية، يدفنون رؤوسهم هربًا من مواجهة الحقيقة، لم أجد لندائي صدى. لم أجد إلا منبركم لأصرخ منه بندائي، فقط أهيب بذوي القلوب الرحيمة الرأفة والرفق ببعضهم البعض. في حياة كل منا أعباء، لا تدِرْ ظهرك لمن يحدث نفسه بجانبك فأنت لا تعلم ضغوط الحياة عليه. رجاء لتتسع صدورنا برحب للمتعبين ففي مرضهم ما يكفيهم. لنحتمل ونراعي بعضنا ففي ذلك مسكن لآلامنا جميعا كما لا أحد بمنأى بصحته العقلية والنفسية من الانغماس في بئر المرض الذي طالما زهده وعافاه.

صفحة صرخات القراء: عزيزي القارئ فلتهمس لجريدتنا بصرخاتك فإنا لأمانة نشرها حافظون. لتكن صرخة حق للمجتمع والمسئولين فإن لم تلقَ ردًّا فأعلم أن صياحك دون هواء. (أللمرضى حق بالحياة؟!).

خبر جانبي في صفحة الحوادث: إصابة رجل الأعمال حسن عوني على يد مجذوب كاد يفقده حياته.

(25)

تململت رغبة في الاستيقاظ. لماذا الفراش قاسٍ لهذه الدرجة؟ كيف لأشعة الشمس أن توغز عينيها بتلك القوة؟ دفعها الألم لفتح عينيها بغتة. وجدت نفسها تفترش العشب، نائمة على أرض زراعية جرداء من البشر. كيف وصلت لهنا؟ حاولت النهوض ولكن أبت عظامها إلا أن تعلن كل واحدة عن نفسها بألم مناسب لها. ماذا حدث؟ تشعر بالخواء، تسبح أفكارها في الفراغ، نظرت لنفسها فوجدتها ترتدي ثيابا راقية وإن اتسخت، لا تتذكر أي شيء ولا تعرف أي شيء، حتى عنها! من هي؟

تأملت الفراغ من حولها؟ أرض زراعية شاسعة بالقرب من قضبان حديدية. يعم السكون الأرجاء خاصة كون الصباح في مستهله. حركت أطرافها جميعا، حسنا حمدا لله لا توجد كسور. نهضت بتثاقل، ترنحت مشيتها قليلا قبل أن تعتادها. وخزها العشب تحت قدميها، أقدامها حافية!! تلفتت حولها بحثا عن حذاء مفقود، تعلم داخليا أنها لن تسير أبدًا هكذا بالرغم من نسيانها حقيقتها، خيل لها جسد مسجى على مسافة منها، رجل نائم، اقتربت بحرص حتى وجدت فردة بالقرب منه. لم تشعر بالخوف من الاقتراب منه حتى بعد أن رأته يتقلب استعدادًا للاستيقاظ، حذاء بكعب عالٍ يناسب ثيابي، جلست ألبسه متمنيةً عثوري على الفردة الأخرى عندما سمعته يسألني عن حالي.

اندفعت صوبه، هل تعرفني؟ هل تعرف من أنا وماذا أفعل هنا؟ تأمل وجهي كثيرًا بحيرة قبل أن يجيبني بأنه من ألقاني من القطار؟! أهي محاولة قتل؟ هل سقطتُ بطيش في يد قاتلي من جديد؟ من أين لي بالفرار؟ قادني خوفي للهرب بعيدا عنه حتى سقطت بشدة، تبا لفردة الحذاء الواحدة وكعبها

العالي، ألم عصف برأسي منعني من الحركة، ظل كبير هبط عليّ قبل أن يبتعد ظله قليلًا ويأتي صوته قلقًا، أراح رأسي بطريقة سليمة، جاء صوته كخرير ماء في الصحراء، حقا هو لا يعلم من أنا سوى لحظة رؤيته لي مع اندلاع النيران بالقطار، أراد الفرار من جحيم النيران، أراد أن يقفز سريعًا من النافذة المفتوحة خاصة مع سرعة القطار المقبولة، وجدها تائهة هائمة أمامه، حملها وقذفها من النافذة وقفز خلفها، آخر ما يتذكره استمرار القطار في السير بعيدا.

وجدت في نفسي الشجاعة لفتح عيني والنهوض، هو ليس سيئا بأي حال، ألم رأسي يتزايد، جلس بهدوء بجانبي، جلست لأخلع عني فردة الحذاء وألقيها بعيدا، وقع بصري على جرح بساعده يغطيه الدماء، بالتأكيد هو من أثر ارتطامه بالأرض. لماذا فجأة غادرتني روحي لأجد نفسي أحملق في يدي الدامية، أعاد صوته لي الحياة، تلك الرؤيا هي ذكرى من ماضٍ، موقنة أنها كانت يدي تلك الغارقة بالدماء، أأنا قاتلة بعد كل شيء؟ أنا فاقدة الذاكرة بعد حادث بالتأكيد سأجد ماضيا مشينا ينتظرني خلف جدار ذاكرتي، أتلك فرصتي في بداية جديدة بضمير صحو!

أشعر كأنني بطلة قصة ما، كل الأبطال فاقدي الذاكرة لهم ماضٍ سيئ، اسمي هو.. هو مروة، نعم مروة. ذاكرتي تعود إلي، اللعنة سأتذكر من قتلته، هل أسلم نفسي؟ أكنت في طريقي للفرار بالقطار قبل الحادث؟ مازال الصداع يعصف برأسي، تغيب الدنيا عني رويدا رويدا، هل غابت الشمس؟ أظلم الكون من حولي.

تململت مروة رغبة في الاستيقاظ، لماذا الفراش هو قاسٍ لهذه الدرجة؟ لا ليس مجددا! نهضت بغتة لتجد نفسها نائمة على سرير طبي، حجرة بيضاء وأثاث عملي بالتأكيد تلك مستشفى، على بعد خطوات يرقد منقذها في كرسي غير مريح، أربطة تحيط بساعده، أربطة تحيط برأسها كذلك، تنفست

الصعداء، لقد تذكرت كل شيء. هي ليست بقاتلة، تلك الذكرى بيدها الدامية لم تَكُنْ دماءً حقيقية، فقط لقد سكبت على يدها عصير الفراولة الخاص بها قبل أن يعلو الضجيج بالقطار نتيجة اندلاع النيران. كانت كما كانت دوما، حمقاء مهووسة بالروايات والأفلام الخيالية. فقدانها المؤقت للذاكرة جعلها تعيش تجربة مثيرة، كبطلة لفيلم واقعي. ارتفعت ضحكتها تدوي ساخرةً من نفسها قبل أن تقهقه لرؤية منقذها يصحو مفزوعًا على صوت ضحكتها.

خبر جانبي في صفحة الحوادث: السيطرة على حريق بقطار دون خسائر بشرية بالرغم من وجود العديد من المصابين.

(26)

ماذا بعد التعليم؟ رسالة من طالب ثانوية عامة. سيدي الفاضل أنا طالب بمرحلتي الأخيرة في مهزلة الثانوية العامة، لن أطيل عليك وأشركك بمشاعر الضياع والتخبط نتيجة للتصريحات الأفعوانية لمرحلة الوحش، مرحلة الثانوية العامة، نظام تعليمي جديد لكل عام، ضغط نفسي من قبل الأهل والمجتمع والناس، أن تعافر من أجل حلم غير موقن بحدوثه. تلك مشاعر عامة يشاركني فيها المجتمع بأسره ليس فقط من وجد نفسه في براثن الثانوية العامة، مشكلتي الحقيقية التي من أجلها أراسلكم هي الغد.

أبي هو مهندس ناجح بعمله وأمي هي طبيبة، أرأيت حجم كارثتي؟ نجاح أسرتي يطاردني! دوما كان علي التفوق مسيرا غير مخير. تمردي على سياق مصيري ومستقبلي منهم كان دفينا، أعلم مقدار حبهم واعتزازهم بي، حاولت العام الماضي أن أخرج عن سياقي وأصررت على اختيار الجانب الأدبي وليس العلمي، اتخذت قراري ولم أرضخْ لأحلامهم، كان هذا هو أول تمرد لي. لم أندمْ على شهور المتعة مع الرفاق حتى جاء اختبار تمهيدي ليثبت تدهور مستواي، هنا والحق يقال جبنت عن مواجهة والدي، استعدت نفسي وطريقي، كرست وقتي للدراسة حتى إنني أخذت درسين خصوصيين في كل مادة وربما ثلاثة!!

أبي ناجح وأمي ناجحة، دائمي العمل بدخل محدود، عندما فكرت في مصروف يدي ومصاريف مدرستي التي لم أعد أذهب إليها إلا لمامًا، مصاريف دروسي المتعددة ومصاريف الحياة الباهظة، نحن على شفا الإفلاس بالرغم من سنوات عمل أمي وأبي العديدة!! أنبني ضميري ولكن ماذا أفعل؟ الحياة حقا غالية وكل شيء تضاعف ثمنه، لتكتمل كآبتي جاء هاجس مخيف، ماذا

لو لم أحصلْ على مجموع عالٍ؟ لن تحتملَ أسرتي دراسة وحياة جامعية خاصة، أدعو الله أن يوفق مواقع الغش ويوفقني في الوصول لها!! فرغم مذاكرتي إلا أنني أهفو إلى تلك المواقع، حتى لو كانت تبني أملًا وتهدمه بيدها الأخرى.

لأول مرة أفكر بجدية بمستقبلي وأهلع، ماذا بعد التعليم؟ إن غاية الأمل بعد المرور من عنق الثانوية الالتحاق بكلية جيدة ويا ليت إحدى القمم، ثم ماذا بعد؟ التخرج بتفوق، لمَ؟ المصير المبهم لخريجي الجامعات لا يحث على التفوق، إذا ما قاتلت حتى أكون أحد الأوائل فأيضًا لا تعيين لي، هل أنفق تحويشة عمر والداي في دراسة عليا دون جدوى! نحن في بلد لا تحث على العلم إلا في الخطب الرنانة، حاملي الدراسات العليا لا يجدون عملا ويصطفون على الأرصفة، خريجي كليات القمة يتزاحمون على المقاهي، ماذا بعد التعليم؟ لازمني الخوف من الغد، الخوف من ضياع الحلم، أن تعاند الدنيا أكثر فأكثر، فأين المفر؟

أهي الهجرة؟ إنها الحلم والأمل بحياة كريمة، لكن ماذا بعد أن يهاجر شباب البلد جميعا، هل في مقدرة البلد الاستغناء عنهم؟ هل تصبح بلدًا؟! لماذا تدفعنا الظروف إلى طريق أشواك غير مأهول؟ هل تمنحنا مواطنتنا فقط الهواء! فكل شيء باستثنائه هو أحلام صعبة المنال بعد أن صار الطموح محالًا. ماذا بعد التعليم أجيبوني؟ أين نصل بنهاية المطاف؟ لماذا شاب القلب قبل حتى أن يصل للعشرين؟ لماذا مات الحلم في مهده؟ ماذا بعد التعليم؟

رجاء أخير أرجو أن تبدأ مقالتي ب(ماذا بعد التعليم) حتى أستطيع التعرف عليها.

صفحة صرخات القراء: عزيزي القارئ فلتهمس لجريدتنا بصرخاتك فإنّا لأمانة نشرها حافظون. لتكن صرخة حق للمجتمع والمسئولين فإن لم تلقَ ردًا فأعلم أن صياحك دون هواء. (ماذا بعد التعليم).

(27)

تحاملت نجلاء على نفسها لتكمل مسيرها في الطريق المقفر، لا تجد من تسأله عن الطريق الرئيسي، لا أحد حولها رغم أن الظلام ما زال يشرع في إسدال ستائره. تألمت من فرط جروحها فوقفت تلتقط أنفاسها، حمدت ربها على نجاتها من براثن الشباب العابثين، حاولت طلب سيارة أجرة من أوبر أو كريم ولكنها لم تجد واحدة في نطاقها. اتصلت بوالدتها تطمئنها عليها لتأخرها في العودة وتسألها المشورة في وضعها العصيب، احتملت صراخ أمها ولومها على اندفاعها وعدم الالتزام بطريقها المعهود، تجربتها الجديدة في أخذ مواصلتين بدلا من انتظار أتوبيسها المعهود ألقى بها وحيدة في منتصف الطريق.

حاولت تبرير موقفها وأمنيتها في العودة المبكرة بعد يوم عمل شاق، كادت تصل لمأربها بعد أن هبطت من السيارة الأولى أمام موقف الانتظار الخاص بالعربة الثانية في وقت قياسي، لسوء الحظ لم تجد في موقف الانتظار أي عربة، لا بأس من قليل من الانتظار، لولا أنها ارتابت في بعض الأشقياء أثناء انتظارها قدوم سيارة، دفعها حذرها إلى الابتعاد عن موقف الانتظار قليلا، راقبتهم وهم يتبعونها ويتلامزون، أطلق خوفها ساقيها تستبق الرياح، هاربة في طرق جانبية متعرجة، تسابقت الحوادث في رأسها، كم من فتاة فُقِدَت وكم واحدة وُصِمَت قهرًا بالعار، ركضت في سباق مع هلعها، لن يثنيها شيء إلا نفاذ أنفاسها. لم يوقفْ من اندفاعها سوى سقوطها، التفتت حولها مذعورة فلم تجدْ أحدًا، لا مطارديها ولا آخرين. ها هي في مكان مقفر لا حياة فيه. عادت

لحديثها مع أمها طلبا للاطمئنان، وصفت مسارها لأمها التي رجتها بعدم التحرك لحين قدوم أخيها.

جلست على قارعة الطريق بعد أن طغى إرهاقها على اهتمامها بهندامها. عم السكون روحها بمحادثة أمها. تحمد الله سرا فقد أنقذها من محنتها وعما قريب يأتي أخوها وينتهي هذا اليوم للأبد. عاهدت نفسها على عدم التهور ثانية أبدًا، لن تخوض سبيلًا لا تعرفه جيدا، ستحافظ على أعينها يقظة لما حولها ولن تسمح لحذرها بالنزول. نظرت لساعة يدها، مازال الوقت مبكرًا لحضور أخيها. قرصها الجوع والعطش، تمنت أن تجد محلًا لتشتري منه ما يسد رمقها ويبدد وحشتها.

تلفتت حولها مندهشة من خلو الطريق حتى من الحيوانات الضالة، حقا يا له من طريق موحش. لم تصدقْ عينها عندما لمحت علامة استراحة عامة في الطريق على بعد عدة أمتار منها، وقفت متأوهة وتيممت الاستراحة النسائية، ليست أكثر من دورة مياه عامة مهجورة. دخلتها فليس لها ترف التأفف. هالها منظرها الرث في المرآة الصدئة، غسلت وجهها فانتعشت. منظر المياة المندفعة من الصنبور اليتيم رد لها بعضا من روحها. تحاملت لرؤية أثر سقطتها، ساقها مليئة بالكدمات، كشفت بعناء ذراعها الأيسر، ما بين الكدمات يوجد جرح قطعي لوث ذراعها بالدماء، كتمت صرختها حين لامس الماء جرحها، عملت على تنظيفه جيدًا بالماء لحين عودتها للمنزل وتطهيره، زاد الماء من انهمار دمائها، ضغطت بأقسى ما لديها من قوة على الجرح لتوقف نزيفه، دقائق قبل أن يكف أخيرًا عن هدر دمها، فتحت الصبور مجددًا لتزيل آثار الدماء من يدها قبل أن تخرج لانتظار أخيها.

دققت النظر في تداخل الدماء والماء وحركتهم الدائرية قبل اختفائهم في البالوعة شديدة السواد ككهف مظلم، سحرتها الدوامة الدامية للحظات قبل أن تتراجع صارخة في هلع من هول ما رأته. فيضان من الدماء ينبعث من لا شيء، الدماء ثائرة وتطفو وتندفع من البالوعة لتغرق الحوض وتنساب على الأرض، الدماء حولها في كل مكان وأجساد تتشكل منها، الجدران تتلاشى والهوة تتسع لتنفتح على الجحيم قبل أن تميد بها الأرض. لم تعلم أنها فتحت إحدى بوابات الجحيم المنسية بدمائها. لم تعلمْ أنها دفعت روحها لتعديها على تلك المنطقة المحظورة. لم تسمعْ عن لعنة المكان المهجور وحوادث اختفاء كل من خطى على تلك الأرض ودنس المكان بخطاه، لكنها توقن أن أحدًا لن يسمع عنها بعد الآن. لقد فرت من براثن العابثين لتقع في براثن الشيطان.

خبر جانبي في صفحة الحوادث: اختفاء فتاة شابة أثناء عودتها من عملها مساء دون أدنى أثر.

(28)

تهادى في سير الحافلة بجانب جمع من الناس تاركًا زميله ينادي عن وجهتهم، لم يعبأ بالهمهمات المستنكرة للركاب، تلقى ثلاثة راكبين آخرين نجح كل واحد منهم في وضع قدم على درجات الباب الخلفي. انطلق لبضعة أمتار قبل أن يداهمه زحام وسط البلد. متململا من رتابة السير وسرعته ترك لعينيه حرية التسلية بملاحقة المشاة. بحكم عمله وطول خبرته كسائق نقل عام كان يجيد قراءة الناس مثل حفظه لخط سير حافلته. ساعات الذروة في وسط البلد هي أسوأ أوقاته وأكثرها متعة، الزحام والحر ومشاكل التلاحم كل من الركاب والسيارات تكاد تفقده صوابه، لم يكن يندفع في خوض أي خناقة أو يستجيب لأي تسخين أو مناورة، تمالكه لأعصابه وعدم التغني بالسباب كان وساما له بين أقرانه، دائما ما يتابع المشاكسات عن بعد فقط بعينيه وأذنه. أحال الواجهة الأمامية لمعرض للمرايا تجعله يتابع كل ما يدور بداخل وخارج حافلته عن كثب. متعته العظمى في تلصص عينيه، يقحمها في السيارات الخاصة، يراقب راكبيها ويرهف أذنيه في متابعة حوارهم ومناقشتهم.

هادئ خنوع في غمر مجتمع مجنون، مستقيم ومسالم بشهادة الجميع، ليست له أي انحرافات عدا ممارسات الجمعة. هواية واحدة دفينة يمارسها في آخر وردية مسائية له في يوم الجمعة بعد أن ينزل زميله بجانب منزله قبل أن يسلم حافلته للجراج، أخذ الحافلة في رحلة غير معلومة الجهة فقط للتسكع بها وحيدًا ومراقبة اللوحات المعدنية للسيارات، خاصة الملاكي! منذ بدء العمل باللوحات المعدنية ذوات الحروف وأخذته هواية محاولة قراءتها مثلما فعل العديد ولكنه انفرد بالرد، يشعر بها رسائل موجهة إليه

ووجب عليه الرد عليها. كل يوم جمعة ينطلق في الشوارع الساكنة المنهكة من زحام الأسبوع مظلمًا حافلته كأنها قادمة من قلب الجحيم. يترقب الرسائل المعدنية الراكنة والمتحركة بحثا عن رسالة تلزمه الرد، ابتسامة ماجنة ردًا على لوحة [ر وب] مع تعليق خليع يحفره بمسمار على جسد السيارة، يؤمن بالإحساس الأول، انطباعه الأول عن الرسالة هو ما يدفعه للرد عليها بما يتوافق مع فكره الخاص، لوحة [أ رق] المنطلقة أمامه أثارته، قرر أن لو كان من يقودها رجل أن يصدمه بحرفية تصيب سيارته دون أن تتأثر حافلته يتبعه بهروب سريع مراوغ انتقامًا منه عن ليالٍ طوالٍ قضاها دون أن يطرق النوم جفنيه، أما لو كانت امرأة فلن يجيب رقتها الناعمة بأكثر من مطاردة مثيرة من الحافلة الشبح فهي أرق من أن تتحطم سيارتها يكفيها الذعر وبال تمايل عربتها أمامه، لوحة مثل [ط ظ] لا يرضيه بأقل من صدمة عنيفة للسيارة يسعد بها التوكيل من فرط الربح، لا ينسى سيارة نسيبه ثقيل الدم ذات لوحة [ه أ]، لقد ثار مرجله لمرآها، مع كل عبارة مدح للسيارة الجديدة تنهال على مسمعه تزيد من إصراره على الانتقام الباطش للتحدي السافر، شاب في مقتبل العمر يتباهى بثمن دماء قلب أبويه من أجل تفاخر سليط، افتقار الأدب جريمة يؤكدها سخرته المعلنة في اختيار لوحته المعدنية، قضى الأمر وقيضت قضية محاولة القتل ضد مجهول لعدم وجود مشتبه به. كتم ابتسامته الشامتة بنظرات مواساة لمصابه الأليم أثناء زيارته له، مقيدا بمقعد متحرك لباقي حياته، بعد الحادث المتعمد لإتلاف فرامل سيارته الجديدة. تنفيذ الحكم بدمار مستقبل الشاب نتيجة على تحديه بلوحة سيارته لم يقلق ضميره قط، فقد تحداه هو سائق حافلات النقل العام المخضرم.

ذكاؤه في المراوغة وعدم الإمساك به لا يضاهيه إلا تكتمه على هوايته الأثيرة، ذكاؤه في مصادقة المسئولين في الجراج واختيار مساء الجمعة، حين

يغفل العديد عن إلقاء حتى نظرة واحدة على الحافلة بعد تسليمها. إخفاؤه أثر ارتطام عنيف في الليلة الماضية عن طريق افتعال حادث مع إحدى السيارات صباحا، إيهام الجميع بقوة موقفه وثبات حجته يجعله دوما ينفذ من العقاب. يعزل نفسه عن الضجيج اليومي وينأى بعيدا عن إقحام نفسه في أي مشكلة أو حادث مترقبا الجمعة من كل أسبوع. حتى جاء يوم لم يستطع السيطرة على نفسه. يوم مثالي في منتصف الأسبوع في ذروة زحام ما بعد الظهيرة، لا يوجد موضع لقدم في حافلته، إشارة مغلقة لعدة ثوان، يتجول بنظره في المارة والسيارات برتابة قبل أن تصدمه لوحة [ش و ه] الخاصة بحافلة مدرسية صغيرة. أيجرؤ قائدها على الاستهزاء به إلى تلك الدرجة. تملكه الغضب حتى ارتعشت أوصاله، زاد من حيرته إحساسه بالعجز عن الرد عن الإهانة البالغة، شعوره أنه مغلوب على أمره أطاح بصوابه، نظرة على جرحه الغائر أسفل لحيته المطلقة خصيصا لإخفاء سبب تشويه وجهه في المرآة الأمامية، نظرة على الإشارة متأهبا لتغييرها واستعداد السيارات للانسياب، وضع قراره قيد التنفيذ ونفذ.

داعبته ابتسامة وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة متخيلا تصدر خبر حادثه صفحات الحوادث، متسائلين عن سبب إطباق حافلة نقل عام على حافلة مدرسية مخلفًا عشرات الوفيات من راكبي الحافلة والتلاميذ العائدين بعد يومهم الدراسي جراء انقلاب الحافلتين معًا. لن يعلم أحد عن هوسه باللوحات المعدنية، وصمتت هواجسه للأبد.

خبر جانبي في صفحة الحوادث: عشرات القتلى ضحايا حادث تصادم مروع.

(29)

سرح العالم (نيكولا تسلا) في الصحيفة أمامه، أخيرًا لقبه العالم بمخترع القرن العشرين، بعد أن كان اسمه نذير شُؤم خلال القرن الماضي. مسكين هذا العالم، لا يوجد فيه من يعي عبقريته. لقد شارف على الانتهاء من اختراعه الأخير، اختراع سيخلد ذكره في سماء العلم كافةً وأبدًا، سيرتب كل شيء، ليبدأ تجربته الفريدة غدًا. عاد لمراجعة حساباته للمرة الثالثة، غدًا سيخطو خطوة المجد في زمن آخر. مبتسمًا نظر لوليده الأخير. حُلمه الأثير يتجسد على أرض الواقع، آلة تسمح له بالتجسد بهيئةٍ أخرى في زمنٍ آخر، أَوْدعها كافة عبقريته الكهربائية، الميكانيكية والفيزيائية.

اتخذ قراره بعد طول عناء وتفكير، نابع من شغفه العلمي، اختار أن يتجسد في هيئة (موجيل بك) المهندس الفرنسي الشهير، بعدما علم بإعجاب (محمد علي باشا) الكبير بمقدرته الهندسية في إنشاء حوض للسفن بميناء الإسكندرية. يعلم جيدا باشتراك (موجيل بك) في بناء القناطر الخيرية، الأولى من نوعها في العالم آنذاك، وفق تصميمه الهندسي أيضًا، تلك المعجزة المعمارية الفريدة الأولى تاريخيًا. رغبته كعالم يريد أن يشهد تحقق معجزة هندسية، ليست الدافع الوحيد لاختياره شخصية (موجيل بك)، هدف أسمى يسعى خلفه، السفر إلى مصر مهد الحضارات وتغيير تاريخ الكون. أمامه تحدٍ صعب، التجسد ليوم واحد يوافق فيه (محمد علي باشا) على اقتراحه بهدم الأهرامات، واستخدام حجارتها في بناء القناطر، لتقليل التكلفة بعد أن تعدت التكلفة مليون جنيه آنذاك!!

يذكر التاريخ الموقف الشجاع لموجيل بك برفضه هدم الأهرامات الخالدة، وخشيته من لقب هادم الأهرام على مر العصور. كل ما عليه أن يعود للماضي في هيئة (موجيل بك) ويوافق على استخدام أحجار الأهرامات السحرية في بناء القناطر، سيذكر التاريخ الحديث إنه (نيكولا تسلا) من دمج سحر الموت مع عبق الحياة، شواهد قبور الفراعنة العظماء مع مياه النيل الخالدة، أسرار لن يَعِ العالم فك طلاسمها، تاريخ ومستقبل تُعاد كتابتهم.

جاء الغد وعاد الماضي، نظرة واحدة أكدت لتسلا نجاح تجربته، من معمله بنيويورك إلى القاهرة في لحظات، ها هو يقف مع (لينان باشا) الإنجليزي كبير المهندسين، يتباحثون سبل استكمال بناء القناطر. ارتجف قلبه في انتظار الاقتراح المشهود، الآن يقابل (محمد علي باشا) الكبير وقد شارف على إنهاء عامه السابع والسبعين، يقترح أن يطمس أسطورة الهرم الأكبر، ليبني أسطورته "القناطر الخيرية". بمجرد أن وافق (تسلا) في هيئة (موجيل بك) على هدم الهرم الأكبر، أظلمت الدنيا وغامت أمام عينيه للحظات، نظر تسلا للساعة في آلته فوجدها توقفت، لقد نجح في تغيير الماضي، سيكتب حاضرًا جديدًا، ليسهم في بناء مستقبل ساحر.

في الأيام التالية حرص (تسلا) على متابعة عملية الهدم بنفسه. استطاع العمال أن يزيلوا بضعة أحجار بعد عناء شديد. تأبى أحجار الهرم أن تتركه، حاولوا مجددًا ولكن لا مزيد من الأحجار تنفصل عن مكانها. حاول (تسلا) بمعاونة بعض العمال الأشداء، أن يبعد حجرًا واحدًا مما انفصلوا عن الهرم لمنطقة أخرى. ما أن ابتعدوا لعدة أمتار حتى سقط الحجر أرضًا وأبى أن يتزحزح عن مكانه. لم يجد (تسلا) سوى أن يطلب من (محمد علي باشا) فرض الحراسة حول الحجر، والسماح له بإجراء أبحاث عليه. سَخَّر (تيسلا) كل عبقريته والتقدم العلمي الهائل في مصر الحديثة، لسبر غور هذا الحجر. كللت

كل أبحاثه بالفشل، فشل حتى في تدمير الحجر أو جزء منه، ثمة قوى تواصل عجيبة بين أجزائه تربطها سويًا!! كاد (تسلا) أن ينهار، ما بال تلك الأحجار ترفض أن تبوح بمكنون أسرارها!! لقد برع الفراعنة حقا في بناء صرح حضارتهم، لإخفاء أسرارهم فيه، لن يستسلم للفشل، ليعيد ضبط آلته وزيارة الفراعنة أثناء بنائهم الهرم، ليتعلم أسرارهم منهم دون وسيط.

رجع (تسلا) لسنة ٢٥٦٠ قبل الميلاد، حيث بدء تشيد الهرم الأكبر كمقبرة لفرعون الأسرة الرابعة (خوفو). عاد في هيئة (كا مس) أحد كبار المقاولين، اندهش تيسلا من عدد الكهنة الكبير المصاحب للبناء. إصرار الكهنة على متابعة البناء وإلقاء طلاسمهم على أحجاره، حاول تسلا باستماتة معرفة أسرارهم، راقب الكهنة عن كثب، اطلع خلسة على أحد تصميمات الهرم. لم يفهم شيئًا من طلاسمه رغم إجادته للهيروغليفية ككا مس. ما يقومون به هو معجزة علمية دقيقة، ممزوجة بسحرهم الخاص. معادلات البناء قلبت موازين الفيزياء المعروفة. يئس (كامس) من فهم المخطوطات، أخيرًا لجأ إلى المواربة والمصارحة في آن واحد، سأل كبير الكهنة مباشرةً عن سر الطلاسم والتعاويذ الخفية التي يصر على إلقائها على أحجار الهرم، ابتسم كبير الكهنة، وأردف: (هذا سر الخلود، أُلقيه على أحجار البناء فلا تنفصل أو تذوب، حتى يفنى الكون، أحجارنا تحفظ الأسرار حتى تلقانا في العالم الآخر). أثارتني إجابته الغامضة، لماذا هو متأكد هكذا من نجاحه؟ كيف يصر على خلود الهرم عبر الزمان؟ نظر (تيسلا) إلى آلته، وقرر أن يخوض آخر رحلة له عبر الزمن، ليذهب إلى زمن آخر إلى المستقبل!

وصل (تيسلا) لعام ٣٥٧٠ ميلاديا في هيئة عالم المصريات الألماني (باريت) وقف أمام الهرم الأكبر مشدوها، كيف صمد طوال تلك السنوات!! شعر بنفسه ضئيلا أمام عظمة الهرم. ظن أن عبقريته ستساعده على سبر

أغوار الفراعنة، أن يصل إلى مبتغاه سر الخلود. لم يحزن على رحلته عبر التاريخ، لم يحقق حلمه، لم ينجح حتى في تغيير الماضي، ولكنه تعلم تلك المخطوطات الفرعونية، لقد حفظ بعض مما فيها. قرر أن يسخر مستقبله في فهمها، محاولة تطبيق أسرارها، سيضع تلك المخطوطات أمامه، ليصير معجزة القرن العشرين بلا منازع.

عاد (تسلا) لزمنه بعد رحلته الطويلة، ليجد أنه لم يغِبْ أكثر من بضعة ساعات. لقد نَجحَت آلته. حقا لم يغير الماضي كما أراد لكنه سيكتب المستقبل كما تمنى، سيعكف على المخطوطات، ليصنع أعظم الاختراعات، لن يعلن عن آلته ولتبقى سره الأثير، فلربما عاد، لينهل من علم الماضي، ليضيء سماء المستقبل.

أغمض منير عينيه بقوة ثم عاد ليفتحها من جديد. تطلع إلى الأوراق بيده. كان مدرسًا بكلية الآداب يقيم أداء طلابه حيث حثهم على الكتابة عن أحد أشهر الشخصيات عبر التاريخ. منحهم حرية الاختيار مع وعد بمنح أعمال العام كاملة لمن ينجح في كتابة سرد تاريخي منمق. لم يدرِ ماذا يفعل بالمقال السابق؟ كان الطالب سالف الكتابة رائعا في أسلوبه وإن كذب. لم يلتقِ تسلا بمحمد على باشا الكبير بل فصلت أعوام بين ميلاد الأول ووفاة الثاني. لقد صاغ طالب مقالته كصفحة من يوميات العالم العظيم. أعاد قراءة المقال ثانيا ثم نحاه جانبا، لقد أفاض في ذكر شخصيات تاريخية خارجا بذلك عن نهج السؤال في تحديد شخصية واحدة. لم يتوانَ في منحه درجة النجاح فقط النجاح فعبقريته لا تدخل في المجموع.

خبر جانبي في الصفحة الأولى: تطور التعليم وفتح آفاق جديدة للتعلم.

(30)

نهاية ناجح فشل في نجاحه.

عنوان جذاب أنهي به آخر أعمالي، فأنا الناجح الفاشل الذي قرر وقف نجاحه فلم تعد رأسي تتحمل صب اللعنات أو الثناء عليها، لم تعرفوني من أسلوبي بعد، حسنا، لأقص عليكم آخر قصصي، قصة نجاحي الفاشل.

صفوت نصار أشهر من أنجبتهم المحروسة لنشر الرعب في ثناياها، لم أدرِ متى تملكني شيطان الأدب ليصب في رأسي بوحي قصصي المرعبة. دون العاشرة كنت أثير رفاقي بأقاصيصي المدهشة حتى لقبت حينها بابن لوسفير لأزداد بهذا فخرا! كيف لا وقد ظنوا أنني ابن للشيطان ذاته؟ ما علينا من البدايات فأنتم تعرفون جيدا كيف انهلتم على رواياتي تبتاعونها ورفعتم راية اسمي عاليا في سماء أدب الرعب.

في غضون سنوات تمركز أدب الرعب في الثقافة العامة لأجيال النشأ والشباب. تدافعهم خلف أي موضة جديدة جعلهم أسرى لرواياتي ثم لسيناريوهات أعمالي الدرامية، أدمنوا الرعب حتى طغت الألعاب الالكترونية المرعبة على رؤوس الجميع، كنت عراب اللعبة، لعبة الرعب. كل عام يجد الشباب نفسه محاصرًا ما بين أعمال أدبية، بعد أن فتحت الطريق أمام العديد، أفلام وألعاب تستهدف أمنهم العقلي والنفسي. كل هذا النجاح أخذني بعيدًا عن مرمى العقل، طاح النجاح بصوابي بعد أن انهالت عليّ الجوائز، تفننت في تقديم الأغرب والأحدث والأكثر رعبًا.

لم تكن أصوات النقد تلقى صداها عندي، فأنا أقدم ما يهواه الجميع، هم من يريدون أن يدب الخوف في قلوبهم وترتعد أوصالهم رعبا. كان

ردي عن انتشار المرضى لموضة الرعب بين الشباب أنهم بالغون يستمتعون بمتعة الرعب المجرد أما عن أي نقد آخر فهو ثمن بخس للشهرة.

أخذتني دوامة النجاح بعيدًا وسط نظرات المعجبين وتصفيقهم حتى قابلته، أحد ضحاياي، عمر ذو الأربعة عشر ربيعا، ابن وحيد لأحد أصدقائي. قابلته في عشاء عائلي على شرفي لأتعرف على أحد أكبر معجبيني، كان عمر نافذتي على حقيقة نجاحي، شاب هادئ ناري النظرات غريب الملبس، لا ليس غريبا ولكنه يتبع موضة السواد القاتم المثير المنتشرة حاليا، مديحه لكل أعمالي قربه من قلبي خاصة أنني لم أرزق بعد بأطفال، صرنا أصدقاء وإن اختلفت أعمارنا، عدت معه بعمري أعواما لأعيش مع تفاصيل حياته مراهقتي من جديد، هو وأصدقاؤه من دعائم رفاهيتي المالية لإدمانهم على شراء كل ما له علاقة بالرعب وأنا ملك هذا المجال، معهم رأيت تطبيق نجاحي، ويا له من نجاح!

لم أصدم بل طار صوابي لما رأيتهم يتبعون، تحولت أعمالي الأدبية إلى نافذة لعالم افتراضي مرعب غرق فيه العديد من الشباب والمراهقين، هناك من أرادوا المزيد والمزيد مما نقدم ولم يكتفوا بالأفلام والروايات بل خلقوا عالمهم الخاص، عالم ممتلئ بالأشباح والتعاويذ، حققت كتب السحر رواجًا تاريخيًا بينهم خاصة المتعلق منهم بالسحر الأسود، لا أعرف كيف صدقوا كل هرطقاتنا الأدبية وجعلوها أساس حياتهم.

لم يقف الأمر الى هذا الحد، انتشرت فيما بينهم مواقع عديدة على مواقع تواصلهم الاجتماعية مما يضع قوانين غريبة قد تصل لحد بعيد في الانحراف، هلعا أمسكت بحاسوبي وصرت أتصفح ما وصلت له الأمور، سقط قلبي وتوقف عقلي أمام ما رأيت، لقد انتشرت بعض الجماعات على الساحة الالكترونية تحمل الكفر وتنشر الإلحاد بين الشباب، ضعف الجانب الديني

وعدم اهتمام الأهالي به قاد أبناءهم للسقوط في الجحيم، أستغفرك ربي لما صنعت يداي، آلاف من المراهقين ممن تضج عقولهم بالأسئلة لم يجدوا من يجيبهم عنها بواقع من الدين والعقل كما فعل آباؤنا ومعلمونا.

إذا كان ضعف عقيدتهم مشكلتهم الخاصة فما بال حالات الانتحار والاكتئاب بين الشباب في تزايد الأعوام الماضية، تضاعفت نسب الانتحار كثيرًا بين المراهقين تحت ضغط أثقالهم النفسية مما حملوا بالرغم عنهم، حتى عمر صديقي الصغير انتفض فزعًا لدويّ صوت غريب تبين أنه لسقوط كتلة ثلج في زجاجته المائية المثلجة! لأي حد وصل له الشباب؟ من المسئول ليعاقب؟ خفْتُ من الرد على سؤالي، بالطبع المسئولية تقع على الرقابة كان لابد من وجود رقابة صارمة تقنن انتشار الأفكار والاتجاهات وتحدد العمر الملائم و... مهلا ماذا أقول؟ هل أصبح اليوم هناك ما قد يخفى على أحد، الإنترنت نشر كل الأفكار دون التقييد بعمر أو مبدأ وأخلاق، هل لمراهق يرى فيلم حذر أنه للكبار فقط أن يدعه ويغلقه دون مشاهدته؟ غابت الرقابة على كل شيء إلا السياسي منها رغم وجود ما أهو أخطر وأشد تدميرًا.

لست مسئولا وحيدا ولكني كنت أول الطريق، لم أجبُنْ من الاعتراف بفشلي، فقد فشلت في السيطرة على نجاحي. بداية فكرت في وضع شرط لقراءة الأعمال الأدبية المرعبة والأفلام ما بين عمر الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين، عشرة أعوام من النضج قبل أن يصير الرعب آفة تؤذي القلب وتضرب باستقراره الصحي، بالطبع ليس أصغر حتى يعوا جيدا حقيقة الأمر وخيالية المحتوى، لكني علمت بعدم جدوى الحلم بقيود عنكبوتية سهلة التمزق، لم أدرِ ما أفعل حتى جاءني خبر انتحار عمر، صديقي الصغير، انتحر نتيجة لاكتئاب حاد سيطر عليه فجأة، لا لست السبب ولكني لن أحتمل أن أكون سببًا لآخر.

هنا أكتب أول مقالاتي بعد أن اعتزلت الكتابة لشهور. ابتعادي أثار ضجة إعلامية وها أنا أفصح لكم عن سر الغياب، أتعلمونه، إنه غياب الضمير. لا يوجد ما يعيب في الكتابة صدقوني ولكن أي كتابة هي، هي ما قد يعيب. عندما غاب الضمير أصبح لزاما الاعتماد على رقابة خارجية. نسينا أن كل واحد رقيب على عمله لما يمليه عليه ضميره، نسينا أن الله رقيبا علينا وعلى أعمالنا، لقد عدت لأكتب دون حاجة لجهازرقابة قوي، عدت لأكتب بكل حرية لا أخاف إلا الله سبحانه وتعالى، أهابه في كل كلمة أخطوها، بعد أن وَعَيْتُ الدرس جيدا عدت. نصيحتي لكل كاتب شاب كن رقيبًا حازمًا لكل كلمة فلا تعلم أيهم يكتب في صحيفتك ولا تعلم إلامَ تدعو دون علمك، نعم قد تجد نفسك في غمر النهر دون أن تتذكر كيف نزلت إليه، كن حذرا لمعانيك وكلماتك، لقد عانيت من نجاحى لعدم إدراكي إلامَ أدعو ومن يدعو من خلفي دون علمي، الآن أكتب ما أرضاه لابني أن يقرأه بوعظ من ضميري ورقابة مبادئي.

ولتكن البداية هاشتاج #كن_رقيب_نفسك

خبر جانبي في صفحة الفن: بعد غياب، عودة قوية لصفوت نصار بهاشتاج #كن_رقيب_نفسك

رسالتنا :

نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017